

جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

النَّزَعَةُ الدِّينِيَّةُ فِي شِعْرِ رِثَاءِ المَدْنِ الأَنْدَلُسِيَّةِ

دراسة تحليلية نقدية

إعداد

كوثر مصطفى أحمد عصيدة

إشراف

أ. د. وائل أبو صالح

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها
بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس - فلسطين

النزعة الدينية في شعر رثاء المدن الأندلسية دراسة تحليلية نقدية

إعداد

كوثر مصطفى أحمد عسيبة

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2018/09/16م، وأجيزت.

التوقيع

د. وائل أبو صالح
ع. عمار شبلي
ع. عبد الخالق عيسى

أعضاء لجنة المناقشة

1. أ. د. وائل أبو صالح / مشرفاً رئيساً

2. د. عمار شبلي / متحناً خارجياً

3. د. عبد الخالق عيسى / متحناً داخلياً

الإهداء

إلى الروح الطاهرة ... إلى روح أبي... لك دوما... إلى مَنْ زرع فيّ الحب ورغبة العلم... فأنت
من جيل الأسطورة... الذي قدّم كل شيء ولم يأخذ شيئاً...

إلى الشمعة المضيئة والدرّة المنيفة... إلى أمي... هذا من فضل دعائك...

ولك أولاً وقبلأ... زوجي الغالي د. فادي عصيدة... الذي قدّم وأعان... وصبر وشجّع...

إلى أمي الثانية... إلى من قدّمت وساعدت خلال دراستي.. خالتي خديجة...

إلى فلذات كبدي... إلى أقمار حياتي... أبنائي (قتادة وقيس ويامن)...

إلى إخوتي وأخواتي الأعزاء (أحمد ومحمود ومحمد ومي وفردوس وإسراء وشفاء وشهد) ... لكم
كلّ الحب...

إلى كلّ من علمني حرفاً... إلى كل من يسعده نجاحي...

أهدي عملي هذا بكل امتنان وشكر

الشكر والتقدير

من حقّ الوفاء علي أن أتقدّم بجزيل الشكر والامتنان للأستاذ الدكتور وائل أبو صالح جزاء ما قدم من جهد طيب وبذل من علم ووقت.

كما أتقدّم بالشكر الوافر من أعضاء لجنة المناقشة على قراءة الرسالة وتقديم النصح والتوجيه.

إلى أسرة جامعة النجاح الوطنية جميعاً، وبخاصة أساتذتي في قسم اللغة العربية، ومكتبة الجامعة وموظفيها.

والى كلّ من قدّم وساعد لكم مني أرق عبارات الشكر وأعذبها. فشكراً لكم وجزاكم الله خيراً.

الإقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان

النَّزَعَةُ الدِّينِيَّةُ فِي شِعْرِ رِثَاءِ المُدُنِ الأَنْدَلُسِيَّةِ

دراسة تحليلية نقدية

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل درجة علمية أو بحث علمي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:

الطالب اسم :

Signature

التوقيع :

Date:

التاريخ :

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
2	الإهداء
3	الشكر والتقدير
4	فهرس المحتويات
7	الملخص
10	المقدمة
12	الدراسات السابقة
15	التمهيد: ملامح الحياة في الأندلس
16	ملامح الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في الأندلس
17	الحياة السياسية
23	الحياة الاجتماعية
29	الحياة العلمية
33	الفصل الأول: شعر رثاء المدن في الأندلس
34	مفهوم الرثاء لغة واصطلاحاً
34	الرثاء لغة
34	الرثاء اصطلاحاً
36	نشأة شعر رثاء المدن

45	شعر رثاء المدن الأندلسية
59	الفصل الثاني: روافد النزعة الدينية
60	تقديم
60	الرافد الأول: القرآن الكريم
62	التأثر بالمفردة القرآنية
74	التأثر بالمعنى القرآني
75	أولاً: الدعوة للجهاد
80	ثانياً: الإيمان بالقضاء والقدر
83	ثالثاً: الدعوة إلى الصبر
84	رابعاً: الأخلاق والبعد عن المعاصي والذنوب
87	التأثر بالقصة القرآنية
96	الرافد الثاني: الحديث النبوي الشريف
101	الرافد الثالث: الشعائر الإسلامية والمقدسات الدينية
108	الفصل الثالث: الدراسة الفنية
109	تقديم
110	اللغة
111	ألفاظ كثيرة التداول
111	لفظ الجلالة
114	لفظتنا الكفر والإسلام

116	الأسلوب
116	الاستفهام
119	القسم
120	الصورة الشعرية الفنية
124	بناء القصيدة
129	التناص
135	التصريح
142	الخاتمة
144	المصادر والمراجع
158	الملخص باللغة الإنجليزية

النزعة الدينية في شعر رثاء المدن الأندلسية

دراسة تحليلية نقدية

إعداد

كوثر مصطفى أحمد عصيدة

إشراف

أ. د. وائل أبو صالح

الملخص

يعرض هذا البحث لقضية من قضايا الشعر الأندلسي، الذي واكب حضارة الأندلس منذ فتحها حتى الرّحيل والخروج منها، فهذا الشعر واكب الفتح، ووصف الحضارة، وتغنى بجمالها وصفات مدنها وأهلها، وعندما حصلت النكبة في تلك البلاد، وحلّ القتل والموت مكان الحياة الرغيدة السعيدة، وقف الشعراء مع مدنهم وبلادهم، وجعلوا شعرهم وسيلة لوصف مآسي الأندلس، وما عانتها من ذبائح وفضائح على يد الإسبان، وكان شعرهم وسيلة مهمة في الدعوة إلى الجهاد ونصرة البلاد التي كانوا يرونها تضيع من أيديهم إلى غير رجعة، ويعتمد شعرهم الدين منطلقاً أساسياً لها، حيث إنها ذات سلطة قوية، ولها تأثيرها في النفوس، لذلك حمل شعرهم الذي رثى المدن الأندلسية المضامين الدينية، وبدت فيه واضحة جلية تناسبا مع الموقف والموضوع.

وقد هدف هذا البحث إلى تتبع روافد النزعة الدينية ومصادرها، من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وغيرها، كذلك توضيح موضوعات شعر رثاء المدن الأندلسية التي برزت فيها النزعة الدينية، إضافة إلى دراسة فنية أسلوبية لهذا الشعر، ومعرفة أثر هذه النزعة على بنية هذا الشعر الفنية وأساليبه.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يسير وفق المنهج الاستقرائي الذي يتقصى شعر رثاء المدن الأندلسية في مصادرها ككتب المؤرخين والأدباء والدواوين الشعرية، والمنهج التحليلي الذي يقوم بتحليل تلك الأشعار للوقوف على روافد تلك النزعة، إضافة إلى تحليل تلك الشعر تحليلاً فنياً.

وقد خلص البحث إلى عدد من النتائج منها: يعدّ القرآن الكريم أهم الروافد الدينية التي

استقى منها شعراء رثاء المدن الأندلسية، وأكثرها حضوراً، تلاه الحديث النبوي الشريف، وقد تعددت

الموضوعات التي اشتملت على النزعة الدينية وبدت فيها تلك النزعة واضحة، كالدعوة للجهاد، واستتصار الأمة وقادتها، وبيان أسباب السقوط والمآل الذي آلت إليه تلك البلاد، وبعض الشعائر الدينية والعبادات، كما استخدم الشعراء الأساليب الفنية الخاصة بمضامين شعرهم، فجاء شعرهم منسجماً في لغته وأساليبه مع الواقع الذي تتحدث عنه، وتميزت مطالع قصائدهم بالتصريح الذي يُحدث في النفس تأثيراً هو ما ينشده هؤلاء الشعراء .

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، حيث كانت المقدمة في صلب الموضوع ومشكلته، وأسباب اختياره، وبيّنت أهداف البحث وأهميته، كما عرضت لحدوده وأبرز الدراسات السابقة التي عرضت لهذا الموضوع، ثم خُتِمت بتوضيح يُبين ما ميّز هذا البحث عن غيره من تلك الدراسات، وتفصيل لأجزائه. أما التمهيد فعرض نبذة عن الأندلس، والحياة فيها سواء الحياة الاجتماعية أم العلمية أم السياسية.

وبعد التمهيد كان **الفصل الأول** الذي تناول معنى الرثاء لغة واصطلاحاً، ثم تحدث عن نشأة شعر رثاء المدن وجذور هذا الغرض الفني، والحديث بعدها عن شعر رثاء المدن الأندلسية. أما **الفصل الثاني** الذي خُصص لدراسة روافد النزعة الدينية في شعر رثاء المدن الأندلسية، تلك التي كان لها الدور الفعال في نضوج هذا الاتجاه، فكان الفصل الثاني في أربعة مباحث: المبحث الأول كان للرافد الأول والأهم وهو القرآن الكريم وعلومه، فوضح المكانة التي حظي بها عند الشعراء، فهو أصل العلوم في الأندلس.

أما المبحث الثاني فكان للرافد الثاني وهو القصص القرآني، وتوظيفها في شعر رثاء المدن. والمبحث الثالث مخصص حول الرافد الثالث، وهو الحديث النبوي الشريف، فهو يلي القرآن في المكانة والاهتمام.

والرافد الرابع له المبحث الأخير في هذا الفصل وهو الشعائر الإسلامية والمقدسات الإسلامية. و**الفصل الثالث** كان دراسة فنية ، حيث سلط الضوء على هذا الشعر من ناحية اللغة والأسلوب والصورة لبيان أثر الاتجاه الإسلامي فيه من الناحية الفنية، مع التركيز على قضية التناص والأسلوبية اللغوية في اختيار الألفاظ والكلمات، وتحليل الصور الفنية وغيرها من القضايا الأسلوبية واللغوية.

المقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّد المرسلين وعلى آله وأصحابه الطاهرين، وبعد، لقد حفلت المكتبة العربية بالعديد من الدراسات الأدبية واللغوية على مرّ العصور والدهور، حيث انبرى الدارسون - قديماً وحديثاً - لدراسة الموضوعات والظواهر الأدبية واللغوية المتنوعة، فقدموا ما استطاعوا تقديمه من الدراسة والتحليل، مما أسهم في إثراء المكتبة العربية بما لا يسهل الإحاطة به، من الأخبار والدراسات والأبحاث في شتى موضوعات اللغة العربية وفنونها وآدابها.

كان العالم العربي قديماً يضم بلاداً متنوعة، تخضع لسلطته أجناس شتى، بدءاً من الشام حتى جزيرة العرب وصولاً إلى المغرب العربي، بل تجاوزته إلى ما وراء البحار إلى بلاد الأندلس، هذه البلاد التي فتحها المسلمون في وقت مبكر من تاريخ قيام دولتهم، حيث شهد العام الثاني والتسعين للهجرة دخول الجيوش الفاتحة لتلك البلاد، فعاش أهلها تحت ظل راية العرب والمسلمين قرابة الثمانية قرون، ازدهت فيه الحياة بأطيافها كافة، اقتصادية وسياسية وثقافية وعلمية، وقد أبدع هؤلاء الأندلسيون في تلك المجالات وتركوا بصماتهم الواضحة فيها، وظهر تفردهم وتميزهم في عديد موضوعاتها، ولا سيما العلمية والأدبية والتعليمية منها.

اهتم الأندلسيون بالتعليم وأعطوه اهتماماً بالغاً، وخاصة دراسة المنبع الأول، والرافد الأهم لهذه العقيدة وهو القرآن الكريم، ثم الحديث الشريف، فظهر هذا الاهتمام في نتاجهم الفني، فالأدب الأندلسي - بما فيه رثاء المدن الأندلسية - يسجل كفاح أمة، وجهاد شعب في فترة زمنية تمتد ثمانية قرون، ولذا فقد رغبت في دراسة هذا الأدب وتسليط الضوء عليه في جزئية لم تتل - حسب ما رأيت - اهتماماً كبيراً من المؤلفين؛ مما جعلني أركز اهتمامي على هذا الفن، وإبراز النزعة الدينية فيه، وتبيان مدى تأثر الشعراء بالعقيدة الإسلامية وتمثلها في شعرهم.

حظي شعر رثاء المدن بمكانة عظيمة بين ألوان الشعر الأندلسي المستحدثة، فلم يعرف المشرق هذا اللون من الرثاء بهذه الصورة الواسعة التي عُرِفَت عند الأندلسيين، وإن كان له جذور في العصور السابقة غير أنه تميّز في الأندلس بسبب الأوضاع التي مرّت بها البلاد، والمصائب التي واجهتها الأندلس.

وتكمن مشكلة البحث في القضايا الإسلامية التي اشتمل عليها شعر رثاء المدن الأندلسية ولتوضيح هذه المشكلة يجب علينا الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- 1- ما روافد النزعة الدينية في شعر رثاء المدن الأندلسية؟
 - 2- كيف تعامل الشعراء مع هذه الروافد بخاصة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؟
 - 3- ما موضوعات النزعة الدينية في شعر رثاء المدن الأندلسية؟
 - 4- ما أثر الروافد الإسلامية في شعر رثاء المدن الأندلسية؟
 - 5- ما أثر النزعة الدينية في بنية شعر رثاء المدن الأندلسية من الناحية الأسلوبية والجمالية؟
- ويسعى هذا البحث إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، أهمها:

- 1- تتبع روافد النزعة الدينية ومصادرها المعرفية، من القرآن والسنة والقصص القرآني والحديث النبوي الشريف.
 - 2- بيان النزعة الدينية في شعر رثاء المدن الأندلسية وموضوعاته مثل الحضّ على الجهاد، وبيان أسباب سقوط الأندلس وغيرها.
 - 3- دراسة البنية الشكلية لهذه الأشعار، وتبيان مدى أثر النزعة الدينية في هذه البنية . وتتبع أهمية البحث في تناوله موضوعاً يعدّ من أشرف الموضوعات عند المسلمين، فهو ينتمي إلى الدراسات الدينية، والقرآنية، والحديث النبوي الشريف، ويظهر البحث مدى تمكّن الإسلام في النفوس، وبخاصة لدى الشعراء وتأثيره في شعرهم فقد "أثر القرآن والإسلام في نفسية الشعراء، وانعكس هذا التأثير على الموضوعات المختلفة التي نظموا فيها"¹.
- والبحث في النزعة الدينية في شعر رثاء المدن الأندلسية أمر يستدعي الاهتمام، لأنّه سيسلط الضوء على إسلامية القصائد، ومدى اندماج المنجز الشعري بالكتاب والسنة، وسرعة استحضاره عند الشدّة والحاجة.
- إن تبيان أثر الروافد الإسلامية في الشعر يدلّل على مكان الإسلام وتمكّنه في النفوس، فلولا ذلك لما انعكس ذلك على الشعر، فمن هنا تتبع أهمية دراسة الموضوع.

¹ علي، عبد الرحمن الحميد: الأدب العربي (العصر الإسلامي والأموي)، دار الكتاب الحديث: القاهرة، 2005م، ص28.

تعدّ حدود البحث من الأسس المهمة التي تعطي الدراسة معنى، وتبرز للقارئ معالم البحث، وتوضحها له، وتتضح معالم هذا البحث في أنّها تسلط الضوء على غرض معين من أغراض الشعر وهو رثاء المدن، وتختص الدراسة بشعر رثاء المدن في مكان بعينه وهو الأندلس، في فترة وجود المسلمين في الأندلس، فالبحث يدرس النزعة الدينية في شعر رثاء المدن الأندلسية بشيء من التفصيل.

الدراسات السابقة

ومن أبرز الدراسات السابقة التي اعتمدت عليها الدراسة:

1- أثر القرآن الكريم في الشعر العربي دراسة في الشعر الأندلسي منذ الفتح وحتى سقوط الخلافة 92هـ - 422م، محمد شهاب العاني 2008 م، ط1، عمان: دار دجلة، 1429هـ - 2008م.

تناول الكتاب تمهيداً عن أثر القرآن الكريم في ثقافة الشاعر من حيث الاقتباس والألفاظ والفاصلة، وتناول أثر القرآن في البنية المعنوية من ناحية القصص والصورة القرآنية والأسلوب القرآني والمعاني القرآنية.

ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي تبين أثر الاتجاه الديني في الشعر، غير أن هذا الكتاب اقتصر على دراسة رافد معين من الروافد الإسلامية المؤثرة في الشعر، وقد درسه في أغراض الشعر الأندلسي جميعها.

2- الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس، الدكتور شاهر عوض الكفاوين، رسالة دكتوراه، 1404هـ - 1984م.

وتناولت الرسالة شعر رثاء المدن في الشعر العربي، وخاصة رثاء المدن الأندلسية غير أنها لم تتناول الأثر الإسلامي في تلك الأشعار.

3- الزهد في الشعر الأندلسي حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ناجية ناجي دخيل الله السعدي، رسالة ماجستير غير منشورة، المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى.

فقد تناولت شعر الزهد وبيت مصادره ومحاوره، ثم تناولته دراسة فنية من حيث اللغة والصورة والموسيقا، وقد أفدت منها في تقسيم الموضوعات.

4- **الرتاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف**، فدوى عبد الرحيم قاسم، رسالة ماجستير غير منشورة، نابلس: جامعة النجاح الوطنية، 1431هـ - 2010م.

تناولت فن الرثاء في الأندلس في عصر ملوك الطوائف، ووضحت معناه وتطوره عن العصور الأخرى، ثم تناولت رثاء الأقارب والأبعاد ورثاء النفس ورثاء ملوك الطوائف وممالكهم التي سقطت على يد يوسف بن تاشفين، ورثاء المدن التي سقطت بيد الإسبان، وتناولت فن الرثاء من الناحية الفنية من حيث اللغة والصورة الفنية والتشكيل الموسيقي.

5- **الأخلاق الإسلامية في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف**، يوسف شحدة الكحلوت، غزة: الجامعة الإسلامية، 1986.

تحدث الكاتب عن المؤثرات العامة في الأخلاق في عصر ملوك الطوائف فكانت مؤثرات سياسية، ومؤثرات اجتماعية، وأخرى فكرية، كما أبرز الأخلاق الإسلامية في مضامين الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف، فكانت مضامين وجدانية، وأخرى اجتماعية، إضافة إلى مضامين وطنية سياسية، وأخرى مضامين فكرية، وقد درس الشعر الأخلاقي من الناحية الفنية من حيث اللغة والأساليب والصورة الفنية.

6- **الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين**، منجد مصطفى بهجت، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986م.

أسهب البحث في تقصي الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، فتحدث عن أغراض الشعر الإسلامي مثل الزهد، والتصوف، وشعر الآداب والأخلاق، وشعر الجهاد والمعارك، وشعر رثاء المدن والممالك، وشعر النقد الاجتماعي كما بحث في الاتجاه الإسلامي في بعض الأغراض التقليدية للشعر مثل المدح والغزل، وقد تحدث عن روافد هذا الاتجاه وحدد السمات الفنية له.

7- **الرتاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين**، مهدي عواد الشموط، رسالة ماجستير غير منشورة، الأردن: الجامعة الأردنية، 2010م.

خصّص البحث مادته في عرض الرثاء في فترة زمنية محددة، تحدّث عن رثاء الأقارب، ورثاء النفس، ورثاء الشخصيات العامة، والأصدقاء، والجواري والغلمان، ورثاء المدن والممالك، وعرض

البحث دراسة فنية لبنية القصيدة واللغة والأسلوب لشعر الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين.

ومن خلال الاطلاع على الدراسات السابقة نجدها رغم أهميتها وإحاطتها بشعر رثاء المدن الأندلسية إلا أنها لا تركز الاهتمام على النزعة الدينية في هذا النوع من الشعر، وعلى مقدار الأثر الذي أحدثه الإسلام في أصحابها، مما جعلني أركز اهتمامي على دراسة شعر رثاء المدن الأندلسية في جانبها الإسلامي، وهو الجانب المغمور والحلقة المفقودة في سلسلة حلقات البحث في هذا الغرض الشعري بما فيه من ألفاظ وتراكيب ومعانٍ تعبر عن إسلاميتها؛ فمادته متناثرة في صفحات الدواوين تحتاج إلى الجهد الكافي من البحث والدراسة والتحليل كي تصبح دراسة مستقلة إلى حيز الوجود.

التمهيد

ملاحح الحياة في الأندلس

الحياة السياسية

الحياة الاجتماعية

الحياة العلمية

الحياة في الأندلس

ملاح الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في الأندلس :

كان المجتمع الأندلسي يضم أجناسا متعددة من البشر فاختلقت عقائدهم وعاداتهم، منهم العرب والبربر والصقالبة واليهود والإسبان، والعرب منهم النزاريون والقحطانيون، وكذلك البربر ينقسمون إلى قبائل مختلفة متنافرة، ومن الإسبان أنفسهم كان المسلم الذي اعتنق العقيدة الوافدة، والمسيحي الذي ظل على مسيحيته يباشر شعائره بحرية وأمان.

ومن الطبيعي أن تكون فترة حكم الولاة بعد الفتح غير مستقرة لكثرة ما تخللها من حروب وفتوح وتوسع، ولما كان يحدث بين العرب والبربر من منازعات ومشاحنات، أو تلك النزاعات التي كانت تحدث بين العرب أنفسهم¹.

وعلى الرغم من تنوع المجموعات التي ضمتها الأندلس غير أنها ما لبثت أن انصهرت معاً بجهود الحكام العرب، فتألفت في ظل بلاد الأندلس، وعمّ النعيم والاستقرار، وتقدم العلم والثقافة والفنون، وتمتعت الأندلس برغد العيش والازدهار.

والأندلس بلاد جميلة، جنان ويساتين، أنهار ووديان، جبال وسهول جمال خلاب أضفت عليه الحضارة الجديدة رقياً حافظ على طبيعة الأندلس الجميلة، ولذا فإن شعر الطبيعة كان ظاهرة أساسية في الشعر الأندلسي، فقد تغنى الشعراء بالطبيعة الساهرة، ووصفوا بلادهم بالجنان الرائعة، والنعيم الدائم، فتغنى الشعراء بمدن الأندلس ووصفوا جمالها، وحظي شعر الطبيعة في الأندلس بمساحة ومكانة كبيرتين².

وبالنظر إلى المجتمع الأندلسي ككل -بغض النظر عن بعض القطاعات- فقد تميز المجتمع بعدة صفات دفعت به إلى التقدم والازدهار، وميزته عن غيره من الشعوب؛ فقد تميز بالعلم

¹ ينظر، الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ط9، دار العلم للملايين: بيروت، 1997، ص21

² ينظر، الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ص21 وما بعدها.

والثقافة، والنظافة، والترتيب، وحب العدل، وإنكار الفوضى، كما تميز بتقديره للعلماء وإجلالهم، فكان العالم موضع تقدير وإجلال من العامة والخاصة.¹

الحياة السياسية

ظلت الأندلس قوية منيعة منذ دخلها المسلمون، فاتحين تحت راية واحدة وقيادة قوية، ولكن ما أن حل الضعف والتفرق حتى حلت بها المصائب من كل حذب وصوب، وهنا تقدمت الأطماع الفردية، والنزعات النفسية، على المصلحة العامة للبلاد، وأصبحت مصلحة الأسرة الحاكمة مقدمة على أية مصلحة أخرى، فتفرق شمل الدولة القوية، وأصبحت تعاني من قتال الأخوة، والتحالف مع الأعداء، وهذا أدى إلى ظهور عدد كبير من الأسر الحاكمة التي وصل عددها إلى عشرين أسرة أو نيف، كل أسرة مستقلة تحكم مقاطعة أو أكثر من مقاطعات الأندلس، منهم: بنو جهور في قرطبة، وبنو عباد في إشبيلية، وبنو ذي النون في طليطلة، وبنو هود في سرقطة، وبنو حمود في مالقة، والزيريون في غرناطة، وبنو صمادح في المرية، وبنو الأفضس في بطليوس، وابن مردنيش (567هـ) في شرق الأندلس، وفي هذا يورد المقري قولاً لصاحب مناهج الفكر: "ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الانقياد، والوفاق، إلى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مسقط رأسه وجعله معقلاً يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه، فصار كل منهم يشن الغارة على جاره ويحاربه في عقر داره"²

لذا فإن الأندلس كانت محفوفة بالخطر، لما ضمته من عصبية مختلفة، وقلما ساد الاستقرار طويلاً في بلد تكثر فيه العصبية المتنافرة، يقول ابن خلدون: "إن الأوطان كثيرة القبائل والعصائب قل ما تستحكم فيها دولة"³ وهذا ما حدث في الأندلس، من الطوائف التي كانت افرزا للعصبية والأجناس التي وجدت فيها، فكان التفرق وراء تلك الزعامات التي أخذت تستعين على بعضها البعض بملوك النصارى الذين كانوا ينتظرون الفرصة لتفريق الأندلس وإعادة حكمهم لها.

¹ ينظر: المقري، احمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي: بيروت، 205/1.

² المقري، احمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 4/ 446.

³ ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ط4، دار إحياء التراث العربي: بيروت: لبنان، ص164.

وبعد أن ساد كل قاضي أو حاكم ولاية على المدينة التي كان كبير القضاة فيها، أو واليا عليها تكونت دول الطوائف، واستعانت هذه الدول بالدول المسيحية المجاورة، لتقوي دولة على أخرى، كما فعل بنو عباد في إشبيلية عندما استعانوا بقشتالة، ضد بني ذي النون في طليطلة، فكان سقوط طليطلة بمساعدة إشبيلية، أو وقوفها مكتوفة الأيدي عندما تعرضت طليطلة للاستباحة فقد عاهدت إشبيلية عدوها وعدو طليطلة، ألا ترفع السلاح في وجهه ولم يكن أبناء عباد وحدهم الذين تحالفوا ضد إخوانهم، بل إن كثيراً من الدول المسلمة في عصر الطوائف تحالفت مع عدو المسلمين وعدوها ضد دولة مسلمة أخرى، فقد كان همُّ ملوك الطوائف هو البقاء في الحكم لفترة أطول حتى لو كان على حساب إخوانهم¹.

وكان الشعر شاهداً وعلى كل هذه الخيانات والمحن التي مرت بها الأندلس، حيث يقول ابن بسام (شعر العصر شاهد بالأمر)²، وقد قام هؤلاء الشعراء بوظائف كثيرة في محنة الأندلس، حيث كان بعض شعراء عصر ملوك الطوائف ينددون بسياسة ملوك الطوائف، ودعوا إلى الخروج عليهم، ومن بين الشعراء الذين شهد شعرهم بخيانة ملوكهم، الشاعر السميصر أبو القاسم خلف بن فرج الجياني(484هـ)، من أعلام الشعراء في عصر ملوك الطوائف، حين قال مقوماً أعمال المعتمد بن عباد:

مجزوء الكامل

نَادِ الْمُلُوكَ وَقُلْ لَهُمْ	مَاذَا أَلْذِي أَحَدَنْتُمْ؟
أَسْلَمْتُمْ الْإِسْلَامَ فِي	أَسْرِ الْعِدَا وَقَعَدْتُمْ
وَجَبَّ الْقَيَْامُ عَلَيْكُمْ	إِذْ بِالنَّصَارَى قُمْتُمْ
لَا تُتَكَبَّرُوا شَقَّ الْعَصَا	فَعَصَا النَّبِيِّ شَقَقْتُمْ ³

¹ الزيات، عبد الله محمد: رثاء المدن في الشعر الأندلسي، ط1: منشورات جامعة قاريونس: بنغازي، 1990م، ص24.
² الشنتريني، ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب: ليبيا، تونس، 1981م، ق 2 ج 1 ص 248.
³ الشنتريني، ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1ج2ص885، عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس، ط2، دار النهضة العربية: بيروت، 1396هـ-1974م، ص 249.

أما الشاعر أبو عبد الله محمد الفاززي (ت 637هـ) فيرفض هذا الذل من ملوك الطوائف، ويندد بالجزية التي تدل على ضعف المسلمين، ويصف فيها الفوضى في بلاد الأندلس، وتخاذل أهلها عن الدفاع عنها، بل وإعانة الأعداء منهم على خرابها، ويستشف من الغيب المآل الذي تؤول إليه إن دامت على تلك الحال، فيسأل الله تعالى أن يطف بعباده ويرحمهم، فقال:

الكامل

الرُّومُ تَضْرِبُ فِي الْبِلَادِ وَتَعْنَمُ
وَالْمَالُ يُورَدُ كُلُّهُ قِشْنَالَةً
وَالجُورُ يَأْخُذُ مَا بَقِيَ وَالْمَعْرَمُ
وَالجُنْدُ تَسْقُطُ وَالرَّعِيَّةُ تَسْلَمُ
وَذَوُوا النَّعَيْنِ لَيْسَ فِيهِمْ مُسْلِمٌ
إِلَّا مُعِينٌ فِي الْفَسَادِ مُسْلِمٌ
أَسْفِي عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ وَأَهْلِهَا
اللَّهُ يَلْطَفُ بِالْجَمِيعِ وَيَرْحَمُ¹

وعلى هذه الحال كانت فترة ملوك الطوائف، خلافات سياسية، وحروب بين الممالك الأندلسية، وضرائب تدفع لصالح الدولة الإسبانية المسيحية، عدوة الإسلام والمسلمين.

وقد استغلت الدول الصليبية المتربصة بالإسلام ما يعاني منه المسلمون من قلاقل واضطرابات، وبالأخص في عصر دول الطوائف، وبعد انهيار الحكم الأموي، فاستولت على طليطلة قلب الأندلس وذلك في العام 478هـ، وكان سقوط طليطلة فاتحة الطريق للاستيلاء على مدن أخرى، وعملت الدول الصليبية على ضرب المسلمين وبث الفرقة بينهم، واستغلت كذلك هزيمة المسلمين في (العقاب) في عام 609هـ. فوجهت إليها الضربة القاضية إن جاز التعبير.

وهكذا عاشت الأندلس فترة مليئة بالأحداث السياسية المضطربة، التي فتحت شهية الدولة الإسبانية المسيحية المجاورة، فصار الأندلسيون يشهدون سقوط ممالكهم الواحدة تلو الأخرى، وأضحت حصون بلادهم في قبضة الإسبان؛ وعرفوا النهاية التي إليها يسيرون، والمصير الذي منه يقتربون، فاشتد رعبهم وهلعت قلوبهم، فبكوا واشتكوا ونظموا الأشعار الوطنية في تحميس الناس للدفاع عن حقيقتهم والاستماتة في صون كياناتهم، معرضين بما يؤول إليه أمرهم هناك من الذل والاستكانة، وطمس معالم الحضارة والدين، وهو ما جعل القوة الإسلامية الجديدة الناشئة بعدوة

¹ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 4 ص 467.

المغرب معقد آمال الأندلسيين، من أجل توقف المد الصليبي الإسباني إلى جنوب الأندلس، وحدث هذا بالفعل، حيث دخلت قوات المرابطين الأندلس فأخرت سقوط المزيد من المدن الأندلسية، ورأى ملوك الطوائف بعد سقوط طليطلة أنهم سائرون ومدنهم حيث صارت طليطلة وصاحبها ابن ذي النون.

وكان ابن عباد أول من تنبه إلى الخطر فحاول إبعاده عن إشبيلية فبدأت تتدهور العلاقات بين ابن عباد وألفونسو، وتطورت الخلافات، فجمع ألفونسو الحشود لغزو إشبيلية فتنادى ابن عباد وكبار ملوك الطوائف ليقفوا في وجه التيار الذي يهددهم جميعاً، فقرروا الاستجداء بالملثمين بقيادة يوسف بن تاشفين (537هـ) الذي انضم إلى ابن عباد وخاضوا معركة "الزلاقة" عام 479هـ وحقق المسلمون فيها نصراً مؤزرًا كان له آثار في إعادة الثقة للأندلسيين.

وصلت مقالات السوء عن ابن تاشفين أول وصوله للأندلس؛ لكن ابن عباد لم يعبأ للأمر فرأى أن خطر الملثمين أهون عليه من خطر ألفونسو، و رعي الإبل كما قال ابن عباد "خير من رعي الخنازير"¹

وعندما عاد ابن تاشفين إلى الأندلس استصدر فتوى بضم الأندلس إلى مراكش، وكان الإمام الغزالي أحد الذين أفتوا بوجوب ضم الأندلس،² وإسقاط ملوك الطوائف لأن بقاءهم يسلمها للإسبان. وما كان من عدد من ملوك الطوائف إلا أن عاد قسم منهم واستجد بألفونسو على ابن تاشفين، ولكن الوقت قد تأخر، فقد وقع ابن عباد، وانتهى ملكه للأبد، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام المرابطين لضم بقية عواصم ملوك الطوائف.

وفي عهد المرابطين عاشت الأندلس أحداثاً سياسية كثيرة، فقد استولى السيد (الكمبيدور) على بلنسية بعد أن أعدم رئيسها الذي اختاره شعب بلنسية القاضي ابن جحاف، الذي استجد

¹ الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم: صفة جزيرة الأندلس (قطعة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار)، تحقيق بروفسال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر: القاهرة، ص 85.

² ابن خلدون: العبر، دار الكتاب اللبناني، ج 2 ص 384، وكذلك عنان، محمد عبدالله: دولة الإسلام في الأندلس العصر الثالث، ط 1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر: القاهرة، قسم 1، ص 130-131.

بالمرابطين؛ لكن دون جدوى، وبقيت بلنسية تحت أيدي الإسبان إلى أن أعادها القائد مزدالي عام 495هـ¹.

لم يطل حكم المرابطين في الأندلس؛ حيث بدأ الضعف يسري في مفاصل الدولة، وبدأت عوامل السقوط، وأسباب الانهيار تستشري في جسدها متمثلة في إهمال الرعية، واهتمام الرؤساء بجمع المال لصالحهم، وجريهم وراء الجواري والتزلف المفرط، ففسدت الأخلاق، وقدموا النساء في أمورهم، وتدهورت البلاد، واستولى النصارى الإسبان على كثير من الأراضي الأندلسية في تلك الفترة، وفكر الأندلسيون في الإطاحة بالولاية المرابطين، وانتخاب ولاية بدلا منهم².

وكان الحدث الأكبر على المرابطين قيام ابن تومرت في بلاد السوس في المغرب، قال صاحب المعجب: "فأما أحوال أهل جزيرة الأندلس فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف اختلت أحوالها اختلالا مفرطا، أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم، وميلهم إلى الدعة، وإيثارهم الراحة، وطاعتهم النساء، فهانوا على أهل الجزيرة، وقلوا في أعينهم واجترأ عليهم العدو، واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم، وكان أيضاً من أسباب ما ذكرناه من اختلالها قيام ابن تومرت (بسوس)، واشتغال علي بن يوسف به عن مراعاة الجزيرة"³.

وعلى إثر هذه الأحداث سقطت دولة المرابطين، وقامت دولة الموحدين على أنقاضها في المغرب والأندلس، حيث بقيت مدة من الزمن كان لها أثرها في السياسة والحياة والناس، كما كان لها دور في تأخير سقوط الأندلس، أو إنقاذها من السقوط السريع، فقد استلم الموحدون مهام المرابطين ووقفوا أمام الفلول الصليبية التي تكتسح العالم الإسلامي من ناحية الغرب.

¹ ينظر: الزيات، عبد الله محمد: رثاء المدن في الشعر الأندلسي، ص32.

² ينظر: المرجع السابق، ص32.

³ المراكشي، عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العلمي، ط1، مطبعة الاستقامة: القاهرة، 1368هـ-1949م، ص 208.

ولقد عاشت الأندلس في عهد الموحدين حدثاً أشبه بحدث الزلافة إلى حد كبير، هو معركة الأرك) التي وقعت عام 591هـ، حيث واجه المسلمون العدو السابق في معركة الزلافة، وهو الدولة الإسبانية النصرانية، مدعمة بالمدد الصليبي من الدول الأوروبية¹.

كان اللقاء في موضع يقال له الأرك في نواحي بطليوس، سميت المعركة باسمه، وكان النصر حليفاً للمسلمين، وشهدت المعركة بقوتهم وأثبتت للصليبيين أن الأندلس لا تسقط بسهولة، فوراء الأندلس مسلمون يضحون من أجل دينهم، وعرضهم، وشرفهم، حتى أنها "أنست كل فتح بالأندلس تقدمها، وبقي بأفواه المسلمين إلى الممات ذكرها"²

لقد أجل هذا النصر سقوط الأندلس حيناً من الزمن، ولكن لم يكن هذا الزمن شيئاً يذكر، فبعد بضعة عشر عاماً من هذا الانتصار، حدث انتكاس للموحدين في معركة (العقاب) التي حدثت عام 609هـ، حيث وقف المسلمون من مغاربة وأندلسيين في وجه الأعداد الصليبية، إذ استمد الصليبيون الإسبان العون من إيطاليا وفرنسا³.

خسر المسلمون في هذه المعركة خسارة فادحة، فكانت "العقاب" أليمة ومؤسفة في تاريخ الأندلس والمغرب وبلاد المسلمين جميعاً⁴، وبعد العقاب انقسم القادة الموحدون الذين كانوا ولاة مدن الأندلس، واستعان بعضهم على بعض بالملوك الإسبان المسيحيين، عندها نادى الأندلسيون بإخراج الموحدين، فظهر محمد بن يوسف بن هود الجذامي، بويغ له في شرق الأندلس، وفي بلنسية قام أبو جميل زيان بن مدافع بن مردنيش بعد طرد الموحدين⁵.

وفي العام 629هـ قام محمد بن الأحمر قرب قرطبة، وبعد صراعات قامت بينه وبين ابن هود الذي استولى على غرناطة، واستقر فيها، وفي عام 646هـ كان خروج الموحدين الأخير من

¹ ينظر: الزيات، عبد الله محمد: رثاء المدن في الشعر الأندلسي، ص34.

² ابن عذاري، محمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، القسم الثالث (تاريخ الموحدين)، تحقيق امبروس هويس مراندا وابن تاويت، دار كريمة للنشر، تطوان المغرب، 1960م، ص196

³ ينظر: الزيات، عبد الله محمد: رثاء المدن في الشعر الأندلسي، ص35.

⁴ للمزيد عن المعركة راجع أشباح، يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبدالله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، المعهد الخلفي بتطوان: القاهرة، 1359هـ-1940م ص 360-361

⁵ ينظر: الزيات، عبد الله محمد: رثاء المدن في الشعر الأندلسي، ص37

الأندلس وانتهاء دولتهم، فكان الوضع السياسي في عصر الموحدين أشبه بالعصر السياسي زمن المرابطين، حيث المؤامرات والمصارعات من أجل الحكم والاستعانة بالمسيحيين على بعضهم البعض، وبفضل دولة ابن الأحمر تأجل سقوط الأندلس في أيدي الصليبيين زهاء القرنين ونصف القرن، وتأجل سقوط البقية التي كانت تتضاءل شيئاً فشيئاً إلى أن استولى النصارى على غرناطة عام 897هـ. بعد أن أسلمها ملكها المخلوع آخر ملوك بني الأحمر أبو عبد الله محمد الذي ساهم - بنزاعه مع أبيه وعمه على العرش-، مساهمة فعالة في سقوط غرناطة¹.

وهكذا بعد انتهاء دولة بني الأحمر يطوى سجل الإسلام في الأندلس، بعد أن احتضنته ثمانية قرون، عاشت الأندلس خلالها كثيراً من الأحداث السياسية، وحفلت بمختلف الأنشطة الثقافية والأدبية والعلمية، ولقد عزّ على المسلمين جميعاً سقوط الأندلس، وانتهاء حضارة الإسلام فيها بعد كل هذا العطاء المزدهر في جميع المجالات، لذلك بكى الشعراء الأندلسيون مصابهم في الأندلس وضياح وطنهم الحبيب، أمام الزحف الصليبي، وخلفوا لنا تراثاً شعرياً يسجل مآسي الأندلس ونكبات الإسلام فيها.

الحياة الاجتماعية

رأينا أن المجتمع الأندلسي يتكون من عناصر مختلفة الأجناس، فقد فتح العنصر العربي مع العنصر البربري الأندلس، وأخذ العرب بالهجرة إلى الأندلس فتزايدت الأعداد، غير أن العرب لم يتركوا خلافاتهم القبلية التي تربوا عليها وإنما حملوها معهم إلى الأندلس التي سببت المناوشات والمعارك، إضافة إلى تنافس العنصر العربي مع العنصر البربري الذي يرى في نفسه الأحق بالسيادة في الأندلس، فقد كان العنصر البربري مكوناً أساسياً لنسيج المجتمع الأندلسي.

إضافة إلى العنصرين البربري والعربي في المجتمع الأندلسي فإن جزءاً من السكان الأصليين لم يدخلوا الإسلام عندما دخل المسلمون إسبانيا أو جزيرة إيبيريا فاتحين، فبقوا على نصرانيتهم أو يهوديتهم، وعُرفوا بأهل الذمة، وقد أعطاهم المسلمون من حرية الرأي، والعقيدة،

¹ ينظر: الزيات، عبد الله محمد: رثاء المدن في الشعر الأندلسي، ص 38

والتصرف، القدر الكبير حتى غدروا فيما بعد بالمسلمين، وبثوا الفوضى والتخريب، وقاموا بالمؤامرات والخيانات التي قوضت الحكم الإسلامي.

وانضم الصقالبة إلى عناصر المجتمع الأندلسي، فقد كانوا ممن أسروا في الحروب الإسلامية من جميع الدول الأوروبية، وكان لهذا العنصر شأن في السياسة في عهد ملوك الطوائف فقد حكم شرق الأندلس ملوك منهم.

تمكنت عناصر المجتمع الأندلسي من عرب وبربر وأهل ذمة وصقالبة من الاندماج والاختلاط مع مرور الزمن ونتج عن هذا الاندماج عنصر آخر وهو عنصر المولدين، وهذا العنصر نشأ عن تزوج العناصر مثل العرب وبربر، أو العرب والبربر بالإسبانيات¹.

وكما أن لكل شيء سلبيات وإيجابيات فإن إيجابيات هذا الاندماج لم تخف سلبياته؛ فقد كان له أثر سيء في كثير من الأحيان" ولم يكن ثمة ريب في خطورة الآثار الاجتماعية التي يحدثها مثل هذا الامتزاج الوثيق، وقد كانت فيما بعد أهم العوامل التي أدت إلى انحلال المجتمع الإسلامي، وانحلال عصبية الدول الإسلامية، كذلك لم يكن ثمة ريب في أن هذه الآثار الهدامة كانت أعمق وقعاً وأشد خطراً وقت الانحلال العام².

قام اليهود والمسيحيون بمحاولات لطمع الإسلام منذ الفتح، فقد قام المعاهدون المسيحيون بالاتصال بالملوك المسيحيين عندما كانت الأندلس في خلاف داخلي، من أجل هزيمة المسلمين، والقضاء عليهم، وهذا ما حدث في عهد الدولة المرابطية³.

ولم يكن لتسامح المسلمين المفرط مع أهل الذمة هذه النتائج فقط بل سمحوا لأهل الذمة بأن يتدرجوا في مناصب الدولة، حتى يصبحوا وزراء وقادة، يحلون مكان القادة المسلمين، كما فعل ابن

¹ عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس)، مطبعة مصر، شركة مصرية مساهمة: مصر، 1378هـ-1958م، ص185.

² عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس)، ص185.

³ انظر هذه الحادثة في: الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط1، مكتبة الخانجي: مصر، 1974م، ج1 ص 119-120.

مردنيش الذي بنى على قواد المسلمين حائطاً، وأحل محلهم قواداً نصارى، جعل لهم أملاك القواد المسلمين، وأسكن النصارى دور هؤلاء القادة.¹

وفي عهد المسلمين كانت الكنائس في الأندلس جنباً إلى جنب مع لمساجد، ولم تتحول الكنائس إلى مساجد إلا إذا أسلم أهلها وهجرت الكنيسة، ولكن عندما سقطت غرناطة، والمدن الإسلامية الأخرى كان المسيحيون يسارعون إلى تغيير المساجد إلى كنائس، تنتهك فيها المقدسات، وتستباح عقيدة المسلمين وعرضهم، ومالهم، بالرغم من العهود الموجودة بعدم فعل ذلك.²

وتاريخ الأندلس حافل بالوقائع التي تؤكد أن تسامح المسلمين الزائد عن حده مع أهل الذمة في الأندلس فتح الباب أمام كثير من الكوارث على الأندلس، فقد أثار أهل الذمة العصبية الجنسية بين مسلمي الأندلس، حتى إذا قامت الحرب بين عصبيتين وقفوا مع إحداهما، حتى إذا ظهر الغالب من المغلوب انقلبوا على المغلوب فقتلوا منها ما شاءوا، فقد قاتل المسيحيون مع البربر أهل قرطبة في وقعه (قنتيش) التي قتل فيها ما لا يقل عن عشرة آلاف³، بين عرب ومسيحين وبربر، والتف المسيحيون بعد ذلك على أهل قرطبة المنهزمين، فسقط من المسلمين في مكان واحد ما لا يقل عن ثلاثة آلاف رجل.⁴

ومن الظواهر الاجتماعية البارزة في الأندلس الحرية الكبيرة للمرأة الأندلسية، فقد كان متاحاً للمرأة في الأندلس التعليم، والتنقيف، وكان لها دور كبير في النهضة الأندلسية فلمع اسم الكثيرات في دنيا الأدب مثل: ولادة بنت المستكفي، وحمدونة بنت زياد المؤدب، ونزهون الغرناطية، وحفصة بنت الحاج الركونية.⁵

¹ ينظر: المراكشي، عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 248-249 .

² راجع: الحجي، عبد الرحمن: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط2، دار القلم: دمشق- بيروت، ص 338.

³ الشنتريني، ابن بسام: النخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1 ج1، تحقيق اللجنة المكونة تحت إشراف كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1364هـ-1945م، ص 43.

⁴ الشنتريني، ابن بسام: النخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1 ج1 ص 44.

⁵ ينظر: الزيات، عبد الله محمد: رثاء المدن في الشعر الأندلسي، ص 53.

وإن كان تعليم المرأة له دور في النهضة الأدبية إلا أن له أثراً سلبياً أدى مع العديد من الأسباب الاجتماعية وغير الاجتماعية إلى سقوط الأندلس، والقضاء على الإسلام فيها؛ فقد أضافت النساء الأدبيات على المجتمع الأندلسي رقة زائدة، وترفاً كبيراً، ولهوا ألهي الشعب عن معرفة ما يحاك له من مؤامرات ومكائد: "عاشت نزهون القلاعية في المئة الخامسة للهجرة في جو كله صخب وتهالك على الملذات، فغرقت من الحياة ما استطاعت، وماتت قبل أن ترى الأندلس الجميلة تطيع وتتلف على يد الحاكمين المستخفين بمقاليد الأمور، غير مدركة أنها كانت مع لذاتها كانت من المساهمات في إضعاف قوة النفوس العربية في إسبانيا، وعنصراً ساعد الجدار المترامي على السقوط والانهييار"¹، فتعلمُ المرأة أتاح الاختلاط بالرجل ونتج عن ذلك اللهو والترف والمجون.

ومن ناحية أخرى كان للزواج بالإسبانيات، دور مساعد على انحلال المجتمع الأندلسي؛ وكان لأبنائهن-فيما بعد- دور كبير في الحياة السياسية، كان لهذا الزواج بالإسبانيات الأثر السيء في انحلال المجتمع الأندلسي، وعصبية دولة الإسلام في الأندلس.² ومن الظواهر البارزة في المجتمع الأندلسي ظاهرة الجواري، فكان لتلك الجواري اهتمام مفرط من الأمراء والملوك حتى تدخلن في شؤون السياسة، وهكذا "كانت الجواري كثيراً ما يتدخلن في الأحداث، ويتسببن في إشعال الفتنة بين رجالات الحكم والسياسة"³.

ومن هؤلاء الجواري: "من كن يتظاهرن بحب العروبة والإسلام، ولكنهن في الحقيقة لم ينسين نصرانيتهن، ولا إسبانيتهن، ومن هؤلاء من كن يتجسسن على الخلفاء، وينقلن لقومهن دقائق الأمور، ويوقعن المسلمين في أشد أنواع الحرج، وكذلك فعل بعض أبنائهن"⁴

ويسبب طبيعة الأندلس الخلابة فقد كانت حياة الترف الحضاري والمادي متاحة في كثير من العهود، وكانت المرأة مشاركة في مجالات الحياة، فوجد أهل الأندلس وقتاً يُصرف في اللهو، والغناء، والموسيقا، والترف، وشرب الخمر، وغير ذلك من مظاهر الانحلال.

¹ أبو شقرا، سعاد: الخالدات منهن، مقال بمجلة الأديب، لبنان-بيروت: فبراير 1954م ج2 سنة13، ص49.

² عنان، محمد عبد الله: تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ط1، دار المعارف: مصر، 1947، ص 229.

³ محمد عبد العزيز عثمان: الإمام والجواري ودورهن في المجتمع الأندلسي، مقال بمجلة آفاق جامعية، جامعة السليمانية: العراق، العدد 29 سنة 1981م ص 49.

⁴ عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس، ص 145.

وفي عصور السقوط اشتغل أهل الأندلس بالغناء وشغفوا به، فقاموا بالتأليف والتلحين، ولشدة حبه لهم تطور فن الموشحات عندهم، فغنوها في نغمات الموسيقى، "ولم يخل عصر من عصور الأندلس من مغنيات أندلسيات وموسيقيات وراقصات، وهكذا كثرت مجالس الغناء في كل مكان وتعددت مراكزها"¹، وأدى الشغف بالغناء إلى "ضعف الروح الحربية عند العرب كما ضعفت الروح الاجتماعية، وتدهورت الأخلاق، وساعد الغنى، وخصب البلاد على انصراف الناس إلى اللهو والملذات"².

ومن الأسباب الأخرى التي ساعدت في سقوط الأندلس شرب الخمر، فقد كان لها دور كبير في انحلال المجتمع الأندلسي، وإلقاء نظرة في أغراض الشعر الأندلسي وموضوعاته دليل على انتشار الخمر في المجتمع الأندلسي، فنجد أن شعر الخمريات حظي بالنصيب الأوفر من اهتمامات شعراء الأندلس.

ولم يبق شرب الخمر مقتصرًا في حانوت اليهودي والنصراني، بل أصبحت في كل مجلس، ولا يشربها صاحبها مع الحبيبات والندماء فقط بل مع الغلمان، الذين يمارس معهم الشاعر شذوذه الفاضح وعهره الفاجر، لقد كانت ظاهرة الغزل بالغلمان منتشرة بالأندلس، وقد "أسرف في تصويرها الشعراء، حتى هؤلاء الذين ترتبط أسماؤهم بسمات من الوقار قد تورطوا في إنشاء شعر الغزل بالغلمان بحيث يخيل لمتابع الدراسة في حقل المجتمع الأندلسي أن هذه العادة الغريبة قد أصبحت جزءاً من كيان ذلك المجتمع"³.

وعلى مستوى الأمراء والسلطين، فإننا نجد كثيراً من الأحيان الفارق الكبير بين الشعب المحكوم، والذي يفتقد في كثير من الممالك القوت الضروري، وبين الحاكم الذي لا يرحم الناس إزاء الضرائب، فالضرائب كثيرة، والمكوس متقلة يدفعونها، لا لشيء إلا ليغطوا نفقات قصور الأمراء

¹ عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس، ص 146-147.

² الحمصي، نعيم: الرائد في الأدب العربي، ط2، دار المأمون للتراث: دمشق - بيروت، 1979م، ص 502-503.

³ الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص54.

والملوك المترفة والمبذرة¹، بل كانوا في بعض الأحيان يدفعونها للأمرء ليقوموا بتسليمها للمالك الإسبانية، ليحكم الأمرء باسمها ممالكهم.

كل هذا من مظاهر الانحلال والفساد وغيرها، جعلت صاحب كتاب ملحمة السيد يحكم على المجتمع الأندلسي بقوله: "كان المسلمون والمسيحيون في الأندلس يختلفون ظاهراً، وأما في العمق فبينهما الكثير المشترك، وكلاهما كان فاسداً وغادراً، وقاسياً، وإذا كان المسلمون لا يكادون يهتمون بتطبيق نصوص الشرعية العلمية، ويفضلون استشارة المنجم على الفقيه، فقد كان بين المسيحيين من لا تعنيه الكنيسة ويدير ظهره للقيس²."

ولم يخل الأمر من محاولات للإصلاح، لكن هذه المحاولات لم تتجح في القضاء الكامل على مظاهر الفساد في المجتمع الأندلسي، فقد كانت الدعوة الموحدية تستند في مبرر قيامها إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقاموا بالقضاء على مظاهر الفساد، فحاربوا الخمر، وأخلوا منها الحوانيت، وهاجموا أماكن اللهو، لكن هذه السياسة لم تستمر طويلاً، فقد انتهت مع انتهاء عهود الخلفاء الثلاثة الأول³، وكان لطبقة الموحدين تأثير سلبي على المجتمع الأندلسي، فقد أرسلوا أرسلوا مع كل حاكم ولاية نظراً من الموحدين، ومهمتهم القيام بشؤون الحكم، والعدل، والاستقرار، غير أنهم تركوا مهمتهم الموكلة إليهم، وشغلوا بالجري وراء الثروة⁴.

أما الفقهاء فقد تباين دورهم بين الإيجاب والسلب، خلال فترة سقوط الأندلس، حيث ظهر فيها شعر رثاء المدن، وكان لهم دور في مظاهر الانحلال بسكوتهم في كثير من الأحيان، خوفاً على مكانتهم ومنزلتهم، فغضوا النظر عن مظاهر الانحلال، والفساد، عند الأمرء والملوك، فكان الطمع يقف حائلاً دون القيام بالواجب المحتوم عليهم، وقد انتقد الشاعر أبو الحسين سليمان بن محمد السباني المعروف بابن الطراوة (ت528 هـ) فقهاء مالقة بقوله:

¹ راجع غرسيا غومس، أميليو: الشعر الأندلسي، ص44.

² مكي، الطاهر أحمد: ملحمة السيد، ط1، دار المعارف: القاهرة، 1970م، ص 15-16.

³ راجع: عيسى، فوزي سعد: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الإسكندرية، 1979م، ص 52-53.

⁴ عيسى، فوزي سعد: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص 49-50.

البيسط

إِذَا رَأَوْا جَمَلاً يَأْتِي عَلَى بُعْدٍ مَدَّوْا إِلَيْهِ جَمِيعاً كَفَّ مَقْتَنَصِ

إِنْ جِئْتَهُمْ فَارِغاً لَزُوكَ فِي قَرْنِ وَإِنْ رَأَوْا رَشْوَةً أَفْتُوكَ بِالرُّخْصِ 1

لم يمنع هذا وجود فقهاء ملتزمين قاموا بالوقوف في وجه الظلم والطغيان، مثل الفقيه أبي حفص عمر بن الحسن الهوزني، الذي بعث رسالة إلى المعتمد بن عباد يدعو إلى الجهاد إثر سقوط بريشتير الأندلسية فدفع حياته ثمناً لكلمة حق قالها، وكان ضمن الرسالة التي أرسلها أبو حفص إلى ابن عباد هذه الأبيات:

الطويل

أَعْبَادُ حَلِّ الرِّزِّ وَالْقَوْمُ هُجِّعُ عَلَى حَالَةٍ مِنْ مَثَلِهَا يُتَوَقَّعُ

فَلَقَّ كِتَابِي مِنْ فَرَاغِكَ سَاعَةً وَإِنْ طَالَ فَالْمَوْصُوفُ لِلطُّولِ مَوْضِعُ

إِذَا لَمْ أَبْتِ الدَّاءَ رَبِّ شِكَايَةٍ أَضَعْتُ، وَأَهْلُ لِلْمَلَامِ الْمُضَيِّعِ 2

وهكذا حاولنا إلقاء نظرة على الحياة الاجتماعية في الفترة التي ظهرت بها بوادر نكبة الأندلس، وبالتالي أدت إلى ظهور شعر رثاء المدن الأندلسية، هذا الشعر الذي كان نتاجاً لثورة علمية هائلة شهدتها الأندلس، هذه الحياة العلمية، التي ساهمت في نشأة هذا الشعر بوسائلها المختلفة إيجاباً وسلباً، ولذا لا بد لنا من أن نقف على الحياة العلمية ومظاهرها.

الحياة العلمية

لم يشهد عصر الولاة نشاطاً علمياً واسعاً كما حدث فيما تلاه من عصور، إلا أن المسلمين الفاتحين للأندلس، ومن هاجر إليها كان بينهم الكثير من العلماء والفقهاء، الذين شكلوا نواة طيبة للنشاط العلمي في الأندلس، وخاصة العلوم الدينية، فقد كان لهم دور كبير في تفتيح الناس، وتدريبهم التعاليم الدينية.

وبعد أن استقرت الأوضاع كان من الطبيعي أن يتجه الناس إلى البناء الحضاري، وتحصيل العلوم والآداب، وكانت العلوم الدينية هي المحور الذي تدور حوله العلوم الأخرى لارتباطها

¹ ابن الأبار: المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق إبراهيم الأبياري، المطبعة الأميرية: القاهرة، 1957م، ص 11.

² ينظر: الشنتريني، ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق 2 ج 1 ص 83.

بالعقيدة. فكان شعب الأندلس يتعلم حباً للعلم وليس لزاماً فيه، لذا فقد اتقنوا في مجال علمهم، فكان الواحد منهم ينفق ماله في سبيل العلم، كما شجعت الدول طالب العلم وحبته بالتقدير والإجلال، وفرضت له راتباً¹. وقل أن تجد من العلماء من هو مبحر في علم واحد، وإنما كثيرٌ منهم الفقهاء والمحدثين والفلاسفة والأدباء والمؤرخين واللغويين².

وكان للحكام دور مهم في رعاية الحركة العلمية، "وذلك أن بعض الحكام في الأندلس كانوا على درجة عالية من العلم، وهم يرغبون في تحسين مستوياتهم العلمية، وتوثيق ثقافتهم المختلفة"³، ومن الأمثلة على هؤلاء الحكام الذين كانوا خير مثال لمن يشجع العلم كونهم علماء: المظفر بن الأفتس، صاحب بطليوس، وولده المتوكل على الله عمر بن المظفر، وأبو الجيش مجاهد العامري، صاحب دانية والجزائر والشرقية، والمعتمد بن عباد، وغيرهم

أما الحكام من غير فئة العلماء فلم يكن حرصهم على تشجيع العلم ونشره وتعلمه، أقل عن الحكام العلماء، ولعل ذلك عائد إلى رغبة كل منهم في إثبات وجوده، وأنه يستطيع منافسة غيره من الحكام؛ فهم يريدون إثبات حبهم للعلم وتشجيعهم للعلماء⁴، يقول صاحب (أعمال الأعلام): "وقدموا القضاة، وانتحلوا الألقاب، وكتب عنهم الكتاب الأعلام، وأنشدهم الشعراء، ودونت بأسمائهم الدواوين، وشهدت بوجود حقهم الشهود، ووقفت بأبوابهم الشعراء"⁵. ولا أدل على حب الحكام للعلم والكتب من أن يقدم الإمبراطور البيزنطي كتاب "ديسقورس" إلى عبد الرحمن الناصر بسبب شهرته بحب الكتب⁶.

¹ ينظر: الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص71.

² ينظر: الرفاعي، مصطفى صادق: تاريخ آداب العرب، مطبعة الاستقامة، ط1، 1940م، ج3، ص331.

³ عسيده، فادي صقر: جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي، ط1، دار الجندي للنشر والتوزيع: القدس، 2016م، ص47.

⁴ ينظر: عسيده، فادي صقر: جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي، ص47.

⁵ ابن الخطيب، لسان الدين: أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من حكام الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، ط2، بيروت: 1956م، 167-168.

⁶ خولييان ريبيرا: اهتمام المسلمين في الأندلس بالكتب: جمال محرز، مجلة العهد للمخطوطات العربية، ص86.

ومن العلوم التي اهتم بها الأندلسيون الفقه والحديث وعلم الأصول والقراءات والنحو وعلوم اللغة، وكان للفقيه مكانته، وللشاعر وجاهته، فالأندلسيون كانوا يحبون الشعر إلى درجة الهوس والتطرف.¹

ولحب أهل الأندلس الشديد للعلم انتشرت المكتبات والكتب في جميع البلاد، وكثر التأليف والمؤلفون، كما قام العلماء برحلات لطلب العلم، وتحصيل المعرفة، فقد قسم بعض العلماء² هذه الرحلات إلى ثلاثة أقسام: رحلة كبرى إلى بلاد المشرق العربي من أجل لقاء العلماء المشاركة وأخذ العلم عنهم، ورحلة وسطى إلى بعض المناطق القريبة من الأندلس كالقيروان من أجل تبادل المعارف والعلوم، ورحلة صغرى، كانت محدودة في بلاد الأندلس.

كان العلم أساس القاعدة الفكرية التي أراد الأندلسيون بناءها؛ لتكون مقابلة لما هو موجود في المشرق، فقد كانوا "أحرص الناس على التميز، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة، ويربأ بنفسه أن يرى فارغاً عالية على الناس لأن هذا عندهم في نهاية القبح، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة، ويكرم في جوار أو ابتياح حاجة..."³.

كانت الأندلس تضم عدداً من الأجناس المختلفة، التي أدت إلى اختلاف اللغات، فقام العرب بالسعي لنشر اللغة العربية في الأندلس، لأنها لغة القرآن، ولا يتعلم الدين دون تعلمها، لذلك وجب على علماء الأندلس تقديم اللغة بشكل مبسط بعيداً عن التعقيد والشوائب، فكان لهم جهد واضح في تبسيط القواعد ليسهل حفظها وفهمها ونشرها.⁴

¹ الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي، ص 72.

² ينظر مطلق، البير حبيب: الحركة اللغوية في الأندلس، المكتبة العصرية: صيدا- بيروت، 1967م، 45، وأبو صالح،

وائل: تطور الدرس النحوي في الأندلس، (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة الإسكندرية: مصر، 1401هـ/1981م،

ص50.

³ التلمساني، احمد بن محمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 220/1.

⁴ عسيده، فادي صقر: جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي، ص 39وما بعدها.

وكان من أهم المظاهر التي ساعدت على نشر اللغة العربية المناظرات النحوية التي أسهمت بدرجة كبيرة في تطور النحو الأندلسي، فهذه المناظرات جاءت تالية للمناظرات الفقهية بين أصحاب المذاهب المتصارعة في الأندلس¹.

¹ أبو صالح، وائل: تطور الدرس النحوي في الأندلس في القرنين الخامس والسادس، 30 وما بعدها.

الفصل الأول

شعر رثاء المدن في الأندلس

مفهوم شعر الرثاء

نشأة شعر رثاء المدن

شعر رثاء المدن الأندلسية

مفهوم الرثاء لغة واصطلاحاً :-

الرثاء لغة :

الرثاء مشتق من الجذر الثلاثي (ر ث ي) يقال: رثى فلان فلاناً، يرثيه ومرثية إذا بكاه بعد موته ومرثاة، فإن مدحه بعد موته قيل رثاه، يرثيه وترثيه ورثيت الميت، رثياً ورثاء ومرثاة ومرثية، ورثيته أي مدحته بعد الموت وبكيتته ورثوت الميت أيضاً بكيتته وعددت محاسنه، وكذلك إذا نظمت فيه شعراً، ويقال ما يرثي فلان لي، أي ما يتوجع ولا يبالي ... ورثى له: أي رق له، ورثيت له: رحمته ويقال رثي له: أي رق له وقد ورد جمع "المرثية" على "مراثي" ولم يرد جمع للرثاء.¹

الرثاء اصطلاحاً

الرثاء بصفة عامة هو البكاء على الميت بالعبارات المبكية، والألفاظ الحزينة، وذكر مآثره التي كانت في الحياة، وتعداد مناقبه وخلالها التي افتقدت بموته، والتحسر على صفاته التي كانت تعجب معاصريه ويصل أثرها إلى الناس الذين حوله فينتفعون بها ويحمدون صاحبها.

فالرثاء شعور بالفقد، وحزن للانعدام، ومن ثم محاولة للتسليية "لمن عضته النوائب بأنيابها، وفرقت الحوادث نفسه وأحبابها، والتأسية لمن سبق إلى هذا المصراع، ونهل من هذا المشرع"² والرثاء يمثل الآلام الباطنة في صورة ألفاظ وعبارات مؤلمة بحيث تؤثر في سامعها تأثيراً مضمناً مؤلماً.³

فالرثاء هو التأبين، وإذا كان المدح هو الثناء على الإنسان في حياته فإن الرثاء أو التأبين هو الثناء عليه بعد موته، وهو من الأغراض الشعرية التقليدية في أدبنا العربي، ويقال للتعبير عن الفجعة ووفاء للميت وتعديدا لمآثره، والشاعر قد يقضي لقوله حقوقاً سلفت، ويظهر صفات المرثي بتعبيرات مبللة بالدموع⁴، وقد رأى أبو هلال العسكري "أن المرثية مديح للميت، والفرق بينها وبين

¹ ابن منظور: لسان العرب، مادة (رثي).

² النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الارب، ط2، مطبعة دار الكتب: القاهرة، 1936م، السفر5، ص164.

³ زيدان، جرجي: تاريخ الأدب العربي، منشورات مكتبة الحياة: بيروت، ج1، ص84.

⁴ عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس، ص194

المديح: أن تقول كان كذا وكذا، وتقول في المديح هو كذا وأنت كذا، فينبغي أن تتوخى في المرثية ما تتوخى في المديح".¹

فبالإضافة إلى كون الرثاء إطراء للميت، وذكرًا لصفاته الحميدة، وأخلاقه النبيلة، ومآثره الإيجابية، هناك نفس تتلوح، وقلب يرتجف، وعين تدمع، وفؤاد ينفطر أسى وحسرة على هذا الذي مضى من غير رجعة إلى هذه الدنيا، والترثي هو ندب الميت.

فالرثاء إن صح أن يُعد مديحاً فهو "في قالب الألم والتفجع"²، وأن يكون الرثاء في قالب الألم والتفجع هو بعبارة نقدية: صدق التجربة الشعرية في الرثاء، وكما عبر عن هذا الصدق أعرابي بطريقته عندما سأله الأصمعي: "ما بال المرثي أشرف أشعاركم؟ فقال: لأننا نقولها وقلوبنا محترقة"³.

فالمرثية إذن هي: "القصيدة أو القطعة الشعرية أو الأثر الأدبي الذي تتخذ الرثاء موضوعاً لها، أما الرثاء فهو الإشفاق والحزن، وهو أمر معنوي"⁴.

وقد تداخل المعنى الاصطلاحي بالمعنى اللغوي للرثاء فأصبح المعنى يمثل مدلولاً واحداً عند بعض النقاد فقالوا: إن الرثاء يعني بكاء الميت، وتعداد محاسنه "بالشعر والنثر"⁵

ويمكن تلخيص معنى الرثاء بأنه: قول الشعر في المرثي والبكاء عليه وندبه، وقد تعارف العلماء على تقسيم الرثاء إلى ثلاثة أقسام هي: العزاء والندب والتأبين.⁶ فجعلوا العزاء للنظرة الفلسفية لحقيقة الموت والحياة، والندب حصروه في الأهل والأقارب والنفس وفي الرسول (صل الله عليه وسلم) وآل البيت، أما التأبين فكان للمواقف الرسمية.

¹ أبو هلال العسكري: الصناعتين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي الجاوي، ط1، دار إحياء الكتب العربية: القاهرة، 1952م، ص131، راجع أيضاً القيرواني، ابن رشيقي: العمدة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط2، مطبعة السعادة المكتبة التجارية الكبرى: مصر، 1955م، ج2 ص147.

² غرسيا غومس، أميليو: الشعر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ط3، مكتبة النهضة المصرية: القاهرة، 1969م، ص106.

³ النويري، شهاب الدين: نهاية الأرب، السفر5، ص165.

⁴ النعمة: مقبول علي بشير: المرثي الشعرية في عصر صدر الإسلام، دار صادر: بيروت، 1997م، ص15.

⁵ الخطيب، بشرى محمد علي: الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، مديرية مطبعة الإدارة المحلية: بغداد، 1997م، ص29.

⁶ ضيف، شوقي: الرثاء، سلسلة فنون الأدب العربي، دار المعارف، 1995م، ص5.

نشأة شعر رثاء المدن

تطالعنا المصادر والوثائق أن رثاء المدن هو من الأغراض الشعرية التي عرفتها الأمم السابقة كالشعب السومري الذي عرف رثاء المدن والقصور والآلهة، ومن المراثي السومرية مرثية شهيرة لمدينة (نفر) وبكائيات على خرائب سومر ومدينة (أور) "والمسرح الديني السومري"¹.
فمرثية مدينة (نفر) تتألف من اثني عشر مقطعاً شعرياً تبكي خرائب المدينة، أما مرثية مدينة (أور) وبلاد سومر فهي تتضمن كلمات تعبر عن لوعة وحزن لما حل بالمدينة، وجاءت هذه المرثية في "اثنين وعشرين لوحاً"².

إن وجود مرث كهذه في الأمم السابقة والأساطير يدل على أن رثاء المدن عُرف منذ زمن قديم. كما وجد رثاء المدن عند البابليين فبكوا وحزنوا عليها فهناك مرثية لمدينة "بابل" تركها لنا الكاتب البابلي (كنبي إيلاني مردوك)³. وتحدث عن تدمير بابل على يد (إيرا المحارب) إله الدمار الدمار وبكاء أهل بابل عليها.

أما في جنوب الجزيرة العربية فهناك مجموعة من المراثي الشعرية قيلت في انهيار (سد مأرب) تتحدث هذه المقطوعات عن النكبة التي أصابت السكان بسبب انهيار السد حيث أدى ذلك إلى هجرتهم من بلادهم.

وعليه فإن رثاء المدن والبكاء عليها وتصوير الخراب والدمار هي سنة موجودة منذ أقدم العصور.

¹ الشواف: قاسم، وأدونيس: ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور، الكتاب الثاني، الآلهة والبشر، دار الساقي: بيروت، 1977، ص369.

² الشواف، قاسم وأدونيس: ديوان الأساطير سومر و أكاد وآشور، ص370.

³ كوننتيو، جورج: الحياة اليومية في بابل وآشور، ترجمة سليم طه النكريتي، 1986، دار الشؤون الثقافية العامة: بغداد، ص25.

أما في العصر الجاهلي، فيرى البعض أن "امراً القيس هو أول من رثى الممالك الزائلة وذلك عندما سقطت دولة الكنديين، وقتل منهم المناذرة عدداً كبيراً من أشرافهم وساندهم"¹، وفي هذا يقول امرؤ القيس (ت540م):

الوافر

مُلُوكٌ مِنْ بَنِي حُجْرِ بْنِ عَمْرِو يُسَافِرُونَ الْعَشِيَّةَ يُقْتَلُونَ¹
فَلَوْ فِي يَوْمٍ مَعْرَكَةٍ أُصِيبُوا وَلَكِنْ فِي دِيَارِ بَنِي مَرِينَا
تَظَلُّ الطَّيْرُ عَاكِفَةً عَلَيْهِمْ وَتَنْتَزِعُ الْحَوَاجِبَ وَالْعِيُونَ²

وإن كان هذا الرثاء موجهاً إلى أشخاص إلا أنه يحمل رثاءً عاماً لدولة الكنديين على يد المناذرة.

أما الأعشى (ت629م) فقد تذكر مصير مساكن ثمود التي أصبحت بيوتاً للحيوانات، ومسرحاً للجن تعزف فيها بعد أن كانت مكاناً عامراً تدب فيه الحياة. يقول:

مجزوء الكامل

إِنَّ الْفُرَى يَوْمًا سَنَّهُ م إِلَيْكَ قَبْلَ حَقِّ عَذَابِهَا
وَتَصِيرُ بَعْدَ عِمَارَةٍ يَوْمًا لِأَمْرِ خَرَابِهَا
وَالْجَنُّ تَعَزَفُ حَوْلَهَا كَالْحُبَشِ فِي مِحْرَابِهَا³

فالأعشى يطلب منا أخذ العبرة والعظة من هذه المساكن التي كانت تعج بالحياة، ولكن القدر غير حالها فحولها إلى خراب، كما بكى الأعشى على قصر (ريمان) الكبير الذي شهد حضارة اليمن ثم استولى عليه الفرس فهدموه، وقال في ذلك:

¹ أبو ناجي، محمود حسن، الرثاء في الشعر العربي أو جراحات القلوب، ط1، دار مكتبة الحياة: بيروت، 1981، ص255.

² أبو ناجي، محمود حسن: الرثاء في الشعر العربي أو جراحات القلوب، ص 256.

³ الأعشى، ميمون: ديوان الأعشى، تحقيق لجنة الدراسات في دار الكتاب اللبناني، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1960م، ص301.

مجزوء الكامل

يَا مَنْ يَرَى رَيْمَانَ أُمَّ م سى خاويأ خربأ كعأبه
أمسى الثعالب أهاأه بعأ الأذن هأم مأبه
فأوى وما من ذى شبا م ب دائم أبدا شبا¹
وهذا علقمة ينظم في حمير وقصورها، ويذكرنا بما أحدثته يد الدهر من تدمير للمدن والممالك التي يشهد التاريخ لها بالقوة والعظمة فيقول:

السريع

لُكِّلَ جَنْبٍ، اجْتَنَى، مُضْطَجَعٌ،
فَسَلَّ جَمِيعَ النَّاسِ عَن حَمِيرٍ
وَالْمَوْتُ لَا يَنْفَعُ مِنْهُ الْجَرَغُ
يُخْبِرُكَ ذُو الْعِلْمِ بِأَنْ لَمْ يَزَلْ
مَنْ أَبْصَرَ الْأَقْوَالَ أَوْ مَنْ سَمِعَ
فَأَنْقَرَضَتْ أَمْلَاكُهَا كُلُّهُمْ،
لَهُمْ مِنَ الْأَيَّامِ يَوْمٌ شَنَّعَ
وَرَأَيْلُوا مُلْكُهُمْ فَانْقَطَعَتْ²
والشاعر بكلمة (ذو) يشير إلى أصحاب القصور والملوك وهذا يعني أنه يرثي أصحاب القصور ويرثي المظاهر التي تركوها، فلم يذكر أسماءهم بل ذكر ما عملوا. فإذا عددنا رثاء الحضارات البائدة، والبكاء على الاستقرار نوعا من رثاء المدن، وإذا عددنا أن الحنين والعودة إلى الفردوس المفقود في الماضي السعيد مقابل الحاضر المجدب نوعا من رثاء المدن فهذا يعني أن رثاء المدن كان موجوداً منذ وجود الحضارات القديمة، وليس فناً حديثاً، ولكنه في الأندلس أخذ يتطور ويصاغ بصيغة أندلسية مختلفة عنها في الحضارات البائدة وتختلف حتى عن طبيعتها في المشرق.

وفي العصر العباسي استبيحت البصرة عام 266هـ على يد الزنج الذين أشعلوا فيها النيران، ودمروا، وهتكوا الأعراض فعبّر الشعراء عن مصاب البصرة ومنهم ابن الرومي (ت283هـ)، حين قال من قصيدته:

¹ الأعرشى، ميمون: ديوان الأعرشى، ص301.

² القرشي، أبو زيد محمد بن أبي زيد الخطاب: جمهرة أشعار العرب، دار المسيرة: بيروت، 1978، ص137.

الخفيف

ذادَ عن مُقْلَتِي لذيذَ المنامِ شُغِلها عنه بالدموعِ السَّجامِ
أَيُّ نومٍ مِنْ بعدِ ما حَلَّ بالبصنِّ رةً مِنْ تَلَكُمُ الهَناتِ العِظامِ
دَخَلوها كَأَنَّهُمْ قَطَعُ اللَّيِّ لِ إِذا راحَ مُدْلِهِمُ الظَّلامِ¹

وفي أبيات أخرى عبر الشعراء الذين رثوا البصرة عن الحالات المأساة التي عاشتها البصرة؛ فالطفل الرضيع يفظم قصرا بحد السيف، والفتيات المسلمات المحجبات تعرضن للسبي وكشفت الوجوه، والقصور العظيمة الجميلة أصبحت رمادا.

الخفيف

كم رضيع هناك قد فطموه بشبا السيف قبل حينِ الفطامِ
كم فتاةٍ بخاتمِ الله بِكِرٍ فضحوها جَهْرًا بِغيرِ اكتتامِ
كم فتاةٍ مصونة قد سبواها بارزاً وجهها بِغيرِ لثامِ
بَدَلتْ تَلَكُمُ القصورِ تَلالِيا من رماذٍ ومن تُرابِ رُكامِ²

وهناك من يربط بين رثاء البصرة ورثاء قرطبة، فكل منهما أبيض ودمر في فتن داخلية، فالبصرة انتهكها الزنج، وقرطبة أبيضت في فتن البربر رأس المائة الرابعة للهجرة وما بعدها، وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر فإنه لمن المفيد أن نشير إلى أن مصاب قرطبة إنما يعيد إلى ذاكرتنا خطب البصرة الفادح، فمثل ما أصاب البصرة حين اقتحمها الزنج، دهم قرطبة ما دهاها على يد البربر³، لذلك جاءت مظاهر المأساة واحدة كسبي النساء وقتل الأطفال والشيوخ، والرضيع الذي فرق عن أمه، وانتهاك حرمة المساجد وغيرها من المظاهر.

ولم تكن البصرة هي الوحيدة التي تعرضت لهذا المصاب من الفتن بل كان مصاب بغداد في الفتن التي حدثت بين الأميين والمأمون مصاباً كبيراً؛ فقد سالت الدماء، وهُتكت الأعراض وهُتبت الأموال،

¹ أبو خشب، محمد إبراهيم: تاريخ الأدب العربي في الأندلس، ط1، مطبعة المدني: مصر، 1966م، ص 179.

² أبو خشب، محمد إبراهيم: تاريخ الأدب العربي في الأندلس، ص 179.

³ الدقاق، عمر: ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق: بيروت، 1975م، ص 275.

فأثر مصابها في الشعراء فرثوها، وكان منهم شاعرها أبو يعقوب إسحاق بن حسان الخريمي (ت 214 هـ) الذي يقول بقصيدة مطلعها:

المنسرح

قالوا وَلَمْ يَلْعَبِ الزَّمَانُ بِبَغْدَادٍ وَتَعَثَّرَ بِهَا عَوَاتِرُهَا
يا هَلْ رَأَيْتِ التَّكْلَى مَوْلُوَّةً فِي الطَّرْقِ تَسْعَى وَالْجَهْدَ بَاهِرَهَا
أَمَا رَأَيْتِ النِّسَاءَ تَحْتَ الْمَجَا م نَقِ تَعَادَى شِعْنًا ضَفَائِرُهَا¹
ورثاها شاعر آخر، ووصف ما حدث لها، وما تعرضت له من مصائب فقال:

الوافر

بَكَيْتُ دَمًا عَلَى بَغْدَادَ لَمَّا فَقَدْتُ غَضَارَةَ الْعَيْشِ الْأَيْبِقِ
أَصَابَتْهَا مِنَ الْحُسَّادِ عَيْنٌ فَأَفْئُتُ أَهْلَهَا بِالْمُنْجَنِيْقِ
فَقَوْمٌ أَحْرَقُوا بِالنَّارِ قَسْرًا وَنَائِحَةٌ تَتُوحُّ عَلَى غَرِيْقِ²
يقول الشاعر: كما بكيت بغداد والبصرة من مدن المشرق، فقد بكيت كثيرًا من المدن التي سقطت في الحروب الصليبية، فقد رثيت القدس التي سقطت في يد الفرنج سنة 422هـ، وقُتِلَ في المسجد الأقصى ما لا يقل عن مائة ألف³، فقد رثى هذه المحنة الشاعر وجيه بن عبد الله بن نصر التنوخي فقال:

الوافر

أَحَلَّ الْكُفْرُ بِالْإِسْلَامِ ضَايِمًا يَطُولُ عَلَيْهِ لِلدِّينِ النَّجِيبُ
فَحَقُّ ضَائِعٌ وَجَمِيٌّ مُبَاحٌ وَسَائِفٌ قَاطِعٌ وَدَمٌّ صَائِبُ

¹ الخريمي، أبو يعقوب إسحاق بن الصفدي: ديوان الخريمي، دار الكتاب الجديد: بيروت، 1971م، ص35.

² لجنة من أدباء الأقطار العربية: فنون الأدب العربي (الفن الغنائي: الرثاء)، دار المعارف: القاهرة، ص 47-48.

³ بردي، ابن تغري: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتاب المصرية: القاهرة، 1353هـ-1935م، ج 5، ص 149؛ وابن الأثير، عز الدين أبو الحسن: الكامل في التاريخ، دار صادر: بيروت، 1982م، ج 8، ص189، يجعلهم سبعين ألفا.

وَكَمْ مِنْ مُسْلِمٍ أَمْسَى سَالِبًا وَمُسْلِمَةٍ لَهَا حَرَمٌ سَالِبٌ¹

الشاعر يرسم صورة لتحول المقدسات الإسلامية واعتداء العدو عليها، فيصف كيف تحول المسجد إلى دير، ونصب على محرابه الصليب، وأكثر من ذلك حين أصبح فيها دم الخنزير المحرم في الإسلام يرى في أزقتها، زد على ذلك اعتداء العدو على المقدس الإسلامي الأعظم وهو القرآن الكريم فقاموا بحرقه، لقد وصف الشاعر هذه الاعتداءات على المقدسات الإسلامية، بهذه الصور الشاعر يسجل التاريخ، والوقائع في تلك الحروب، بالإضافة إلى كون هذا الشعر دعوة للنهوض، والدفاع عن المقدسات الإسلامية. يقول أيضاً:

الوافر

وكم من مسجدٍ جعلوه دَيْرًا على محرابه نُصِبَ الصَّالِبُ
دُمُ الْخِنْزِيرِ فِيهِ لَهُمْ خُلُوقٌ و تَحْرِيقُ الْمَصَاحِفِ فِيهِ طِيبُ
أُمُورٍ لَوْ تَأَمَّلَهُنَّ طِفْلٌ لَطَقَّلَ فِي عَوَارِضِهِ الْمَثِيبُ²

وبعد أن يصف الشاعر ما حدث بالمقدسات الإسلامية يصف ما حدث للمسلمات من سبي وانتهاك للأعراض، وينكر طيب العيش على المسلمين والأعراض تنتهك، ويتساءل أليس للإسلام الحق في الدفاع عن مقدساته؟ ألا يحق أن يدافع الشباب والشيوخ عن المقدسات والأعراض؟ لقد حمل استفهام الشاعر دعوة للجهاد والدفاع عن الإسلام والمسلمين.

الوافر

أَتُسَبَّى الْمُسْلِمَاتُ بِكُلِّ تَغْرِ وَعَاشِئُ الْمُسْلِمِينَ إِذْ نَ يَطِيبُ
أَمَّا اللَّهُ وَالْإِسْلَامُ حَقٌّ يُدَافِعُ عَنْهُ شُبَّانٌ وَشَيْبُ³

ولم تكن هذه القصيدة هي الوحيدة التي رثت بيت المقدس، بل رثته قصائد أخرى مثل قصيدة ابن المجاور، أبي يوسف شهاب الدين يعقوب، حيث قال شعرا يقطر أسى ولوعة ويفيض عبرة، ويدعو إلى الثأر واسترداد المدينة ويبيكي القدس فيقول:

¹ بردي، ابن تغري: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 5، ص 101.

² بردي، ابن تغري: النجوم الزاهرة، ج 5، ص 101.

³ بردي، ابن تغري: النجوم الزاهرة، ج 5، ص 101.

الطويل

أَعَيْنِي لَا تَرَّقِي مِنَ الْعَبْرَاتِ
وَيَا قَلْبُ أَسْعِرْ نَارَ وَجْدِكَ كُلَّمَا
صَلِي فِي الْبُكَاءِ الْأَصَالَ بِالْبُكَرَاتِ
خَبَتْ بِأَذْكَارٍ يَبْعَثُ الْحَسْرَاتِ
يُرَوِّحُ مَا أَلْقَى مِنَ الْكُرْبَاتِ 1

وواضح ما تمتاز به هذه المرثية من وفرة الأحاسيس وعمق العواطف وحرارة المشاعر، حتى وجدنا الشاعر يفرط في ترديد اسم القدس فيها مرات عدة، فضلا عن ذكر المسجد الأقصى وما حل به من خراب ودمار على أيدي الصليبيين، وانتهاك مكانته الدينية المتميزة. حيث قال:

الطويل

عَلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي جَلَّ قَدْرُهُ
عَلَى الْقِبْلَةِ الْأُولَى الَّتِي اتَّجَهَتْ
عَلَى مَوْطِنِ الْإِخْبَاتِ وَالصَّلَوَاتِ
لَهَا صَلَاتُ الْبِرَايَا فِي اخْتِلَافِ جِهَاتٍ 2

وعندما تعرض المشرق الإسلامي لاكتساح التتار سقط الكثير من المدن، فقبلت القوائد التي تبكيها، وتصور حالها، وكذلك الأمر مع مدينة بغداد عندما سقطت بيد المغول سنة 656هـ، وهدموا كثيرا من معالمها الحضارية، وأحرقوا خزائن الكتب فيها، وأفنوا تراثها الأدبي والعلمي، لقد لاقى من الدمار والتخريب والقتل ما لاقى مدن الأندلس من الإسبان المسيحيين، لذلك فقد رثاها شاعرها شمس الدين الكوفي (675هـ) بقصيدة منها:

الكامل

إِنْ لَمْ تُفْرَحْ أَدْمَعِي أَجْفَانِي
مِنْ بَعْدِ هَجْرِكُمْ فَمَا أَجْفَانِي!
إِنْسَانُ عَيْنِي مُذْ تَنَاعَتْ دَارُكُمْ
مَا رَاقَهُ نَظْرٌ إِلَى إِنْسَانٍ

¹ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية)، دار الجليل: بيروت، 206/2، في ترجمة ابن المجاور راجع المغربي، ابن سعيد: الغصون الياض في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف: مصر، ص19.

² أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية)، 206/2.

مالي وللايام شتت حطبها شملي وخلاني بلا خلان¹
كان للشعراء دور مهم في التعبير عن ألم المأساة، والحدث الذي نزل ببغداد، والخلافة
العباسية، وفي هذا الصدد نرى الكوفي باكياً في أكثر من قصيدة خص بها بغداد. وذكر مآثر
أهلها، تلك المرثي التي مثلت حس العالم والفقير الذي يرقب دمار بلدة، ولا يستطيع أن يفعل لها
شيئاً.

الكامل

ما للمنازل أصبحت لا أهلها أهلي ولا جيرانها جيرانني
أين الذين عهدتهم ولعرهم ذلاً تخر معاقد التيجان؟
كانوا نجوم من اقتدى فعلهم بيكي الهدى وشعائر الإيمان²
ويبدو أن الشاعر الأندلسي أبا البقاء الرندي (684هـ) قد تأثر بهذه القصيدة، عندما رثى
الأندلس، وهذا ما يعرف بالتناص من النصوص الأخرى حيث يقول الرندي:

البيسط

بالأمس كانوا مملوكاً في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبداً
قلو تراهم حيارى لا دليل لهم علىهم من ثياب الدل ألوان³

كما بكاها في محنتها مع التتار الشاعر تقي الدين إسماعيل بن أبي اليسر في قصيدة مطلعها:

البيسط

لسائل الدمع عن بغداد أخبار فما وقوفك والأحباب قد ساروا
فالشاعر يصف القتل والدمار ويقول فيها:
ناديت والسبي مهتوك تجرهم إلى السفاح من الأعداء ذعار

¹ البيومي، محمد رجب: الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، مطابع جامع الإمام محمد بن سعود الإسلامية: السعودية، 1400هـ، 1980م، ص 219-220.

² البيومي، محمد رجب: الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، ص 219-220.

³ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص487.

وَهُمْ يُسْأَفُونَ لِمَوْتِ الَّذِي شَهِدُوا النَّارُ يَا رَبِّ مِنْ هَذَا وَلَا الْعَارُ
إِنَّ الْقِيَامَةَ فِي بَغْدَادَ قَدْ وُجِدَتْ وَخُدَّهَا جِيْنٌ لِلإِقْبَالِ إِدْبَارُ 1

وكانت دمشق من بين المدن التي رثيت بعد سقوطها بيد التتار؛ فقد رثاها الشاعر علاء الدين علي الأوتادي بقصيدة بلغت تسعة وأربعين بيتاً، وكما هو الأمر في رثاء المدن يصف الشاعر ما حدث للديار، ويصف القتل والدمار، ويتحدث عن المسلمات وما حل بهن من كشف وتعرض للسبي على أيدي الأعداء، والمقدسات الإسلامية التي تتحول الى أماكن للكفار، وقد قال في مطلعها:

الخفيف

لَكَ عِلْمٌ بِمَا جَرَى يَا سُهَادِي مِنْ جُفُونِي عَلَى افْتِقَادِ رُقَادِي
ويقول فيها:

طَرَقَتْهُمْ حَوَادِثُ الدَّهْرِ بِالْقَمِّ م تَلَّ وَنَهَبَ الأَمْوَالِ والأَوْلَادِ
وَبَنَاتٍ مُحَجَّبَاتٍ عَنِ الشَّمِّ م س تَنَاءَتْ بِهِنَّ أَيْدِي الأَعَادِي
وَأُفْصُورٌ مُشِيدَاتٌ تَقَضَّتْ م فِي ذُرَاهَا الأَيَّامُ كالأَعْيَادِ
وَبِيوتٍ فِيهَا التَّلَاوَةُ وَالدُّكُ م رِ وَعَالِي الحَدِيثِ بالإِسْنَادِ 2

وبعد هذا الاستعراض السريع لبعض المراثي للمدن المشرقية في وقت المصائب والويلات، فلا يمكن القول: إن هذا النوع من الرثاء "لم يكن معروفاً في الأوساط الأدبية المشرقية قبل عصر المقري"³

وبالتالي فإن "اختصاص الأندلس بهذا الغرض الشعري لا ينهض على أساس قويم، ومن الإنصاف أن نذكر أن الأندلس قد برعت في هذا اللون براعة مشهودة، فقد وجدت في مآسيها

¹ بردي، ابن تغري: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 7 ص 51-52.

² النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب، السفر 5، ص 227-229.

³ الموصلي، سامي: دراسات أندلسية، ط1، مطبعة الزمان: بغداد، ساعد وزارة الإعلام على نشره، 1970م، ص 205.

الدامية ما أذكى عواطف الحسرة واللهف، فاندلعت زفراتهم الشعرية تتحدث عن المساجد المتهدمة، والكنائس المشيدة، والأذان الصامت، والناقوس المجلجل"¹.

شعر رثاء المدن الأندلسية

يعد شعر رثاء المدن الأندلسية جزءاً من شعر الرثاء الأندلسي، "وهو شعر يهدف إلى تصوير نكبة الأندلسيين، بفقدان أجزاء من بلادهم وتحريض القوم على الصمود ومواصلة القتال، وهو يدعو المسلمين من بر العودة وما وراءه لإنقاذ الأندلس، والمشاركة في الجهاد المفروض"² فإذا كان الرثاء هو التأبين أو ذكر مناقب الميت فإن رثاء المدن هو التفجع على المدن المنكوبة.

فرثاء المدن الأندلسية هو البكاء على هذه المدن التي فقدت بأهلها وعمرانها وحضاراتها، فقدت نتيجة غدر الصليبيين النصارى وحقدهم على الإسلام والمسلمين، فقد صبوا جام غضبهم على هذه المدن بعد أن دخلوها وأعطوا العهد لأهلها، وأمنوهم على أنفسهم وأموالهم، وحرّياتهم ومعتقداتهم، وما أن تُحاصر المدينة حتى ينقضوا العهد ويغدروا بأهلها، ويعبثوا بتلك المدن الجميلة، ويحولوها ساحة دماء وخراب بعد أن كانت نعيماً وحياءً.

لقد حمل هذا الشعر معاني غير الألم والحزن والتفجع، فقد " جاء مشتملاً على معان أخرى كثيرة، منها: مخاطبة الملوك واستنهاض هممهم، واستجاشة عواطف المسلمين، ومخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم وطلب العون منه، ووصف حال المسلمين عقب سقوط المدينة، في حين نجد بعض الشعراء يضمنون قصائدهم نقداً لاذعاً للأوضاع السياسية المتردية"³.

ولم يقتصر رثاء المدن الأندلسية على رثاء تلك المدن التي سقطت في الحروب الخارجية مع النصارى الإسبان، بل شمل المدن التي حدثت فيها فتن داخلية فنزل فيها الدمار واستبيحت الأعراس وسالت فيها الدماء كقرطبة والبيرية، ورندة وغيرها من المدن.

¹ البيومي، محمد رجب: الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، ص 221.

² الداية، محمد رضوان: أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس، ط1، مؤسسة الرسالة: بيروت، 1396هـ-1976م، ص80.

³ بهجت: منجد مصطفى، الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، ط1، مؤسسة الرسالة: بيروت، 1986م، ص322.

لقد عبر الشعراء عن أحداث الأندلس بقصائد مبكية حزينة تصف ما حدث ببلاد كانت آية في الجمال تعرضت إلى الخراب والدمار، كما سجلت القصائد الأسباب التي أدت إلى سقوط، والصراعات، والخلافات السياسية على السلطة، التي فتحت المجال للعدو لينهش جسد البلاد، التي كانت مطمئناً له من بداية الفتح الإسلامي، لكنه تمكن من القضاء عليها في نهاية القرن التاسع الهجري.

فشعر رثاء المدن " تطور في الأندلس تطوراً ملحوظاً وظهر بحلة جديدة جعلتنا نحكم على أن أولئك الشعراء شديداً الارتباط بمدنهم، محبوبون لها، غير راضين عن كثير من السياسات التي كانت وراء ضياع كثير من مدن الأندلس"¹ لذا فقد صور الشعراء التدمير والتخريب الذي تعرضت له الحواضر الإسلامية، وغالباً ما كان ذلك في موقف الاستجداء والرثاء، لعلهم بذلك يثيرون الهمم ويحركون العزائم، ويلهبون المشاعر²

عدَّ البعض فن رثاء المدن فناً أندلسياً أصيلاً غاصاً النظر عن كل التلميحات لوجوده في الأساطير، وعن الكلام في وجوده من العصر الجاهلي، وعن كون الأطلال هي نوع من أنواع الرثاء ليرى في الأندلس مهدياً لهذا الغرض الفني، أنتجته طبيعة الظروف التي حدثت في الأندلس، فقد تعرضت المدن الأندلسية إلى فتن سياسية، وحروب طاحنة، طالت الأخضر واليابس، فانتشر الرعب، وقُتل الرجال، وأسِر الكثير منهم، وسببت النساء والأطفال، وانتهكت الأعراض، واستبيحت الأوطان، حدث ذلك بين المدن الإسلامية ذات الأنظمة المختلفة ليسعى كل نظام لفرض حكمة على حساب الأرواح، يقول طاهر مكي: " فبكاء الممالك المنهارة والمدن الذاهبة فن أندلسي أصيل"³

وكان الهول والروع أعظم عندما تكون الحرب بين المدن الإسلامية، والإسبان النصراني، وهذه الأحداث استدعت قرائح الشعراء، الذين صوروا الدمار، فبكى الشعر أزمة هؤلاء الذين تستباح مدينتهم، وأموالهم، وأعراضهم. يقول الدكتور باقر سماكة: "من أغراض الشعر الأندلسي الأصيلة

¹ الشموط، مهدي عواد: الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين، (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الأردنية: الأردن، 2010م، ص161.

² ينظر: الرقيب، شفيق محمد: شعر الجهاد في عصر الموحدين، مكتبة الأقصى: عمان، 1984م، ص144.

³ مكي، الطاهر أحمد: ملحمة السيد، ط1، دار المعارف: القاهرة، 1970م، ص148.

غرض رثاء الدول... لأنه نابع من صميم الواقع الأندلسي، نظراً لما وقع في الأندلس من كوارث وويلات"¹.

كانت نشأة شعر رثاء المدن في الأندلس نابعة من ظروف الحياة في الأندلس، بسبب الأوضاع السياسية، وما حل بالبلاد من نكبات وويلات فظهر هذا الفن في الأندلس منذ أوائل القرن الخامس الهجري، عندما استبيحت قرطبة أهم مدينة في الأندلس، فقد كانت عاصمة الخلافة في الأندلس، سياسية وعلمياً وأدبياً وبقيت كذلك إلى أن سقطت بيد الفتن من أجل السلطة فخرجت من هذا الصراع، منهكة القوى، مشوهة الملامح، دفعت حالتها شاعرها وابنها ابن حزم (ت 456هـ) إلى رثائها بقصيدة منها:

الطويل

تَرَاهَا كَأَنْ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ بَلْقَعًا وَلَا عَمَّرَتْ مِنْ أَهْلِهَا قَبْلَنَا دَهْرًا²
أما الشعر الذي يرثي المدن التي سقطت بيد النصارى فقد ظهر إثر سقوط مدينة (برشبتر) حين رثاها ابن العسال (ت 487هـ) بقصيدته، التي منها:

الكامل

وَلَقَدْ رَمَانَا الْمُشْرِكُونَ بِأَسْمِهِمْ لَمْ تُخْطِ لَكِنْ شَأْنُهَا الْإِصْمَاءُ
هَنَكُوا بِحَايِلِهِمْ فُصُورَ حَرِيمِهَا لَمْ يَبْقَ لَا جَبَلٌ وَلَا بَطْحَاءُ
جَاسُوا خِلَالَ دِيَارِهِمْ فَلَهُمْ بِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ عَارَةٌ شَعْوَاءُ
بَاتَتْ قُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ بِرُغْبِهِمْ فَحُمَاتُنَا فِي حَزْبِهِمْ جُبَاءُ³

¹ سماكة، باقر: التجديد في الأدب الأندلسي، مطبعة الإيمان: بغداد، 1971م، ص 58.

² ابن الخطيب، لسان الدين: أعمال الأعلام، تحقيق بروفنسال، دار المكشوف، ص 107.

³ الحميري، محمد عبد المنعم: صفة جزيرة الأندلس (مقتطفة من الروض المعطار)، تحقيق بروفنسال، مطبعة لجنة التأليف،

التأليف، 193م، ص 40-41، وكذلك أرسلان، شكيب: الحلل السندسية، ط1، مطبعة عيسى الباجي الحلبي:

مصر، 1936م، ج3، ص 541.

وصف ابن العسال الحالة التي أصابت أهل البلاد، وخاطب المشاعر الإنسانية عندما وصف قسوة العدو مع الأطفال والشيوخ والنساء، بل وصف حالة أشد قسوة وأكثر تأثيراً بوصفه الرضيع الذي فصلوه عن أمه، ولم يكن ابن العسال الوحيد الذي عبر عن حالة الرضيع، بل ظهرت عند أكثر من شاعر، ومن الشعراء الذين رثوا المدن في الأندلس ابن العسال:

الكامل

ماتت قلوب المسلمين برعبهم
فحُماتنا في حُرَيْبهم جُبَاءُ
كَمَ مَوْضِعٍ غَمَّوهُ لَمْ يُرْحَمْ بِهِ
طِفْلٌ وَلَا شَيْخٌ وَلَا عَذْرَاءُ
وَكَمْ رَضِيعٍ فَرَّقُوا مِنْ أُمِّهِ
فَلَهُ إِلَيْهَا ضَجَّةٌ وَبُغَاءُ¹

ومنذ ذلك الحين ظهر شعر رثاء المدن في الشعر الأندلسي، وبقي يسير مع محن قرطبة، وغيرها من المدن، ويسجل المآسي التي كانت تخلفها الحروب، وظل كذلك الأمر إلى أن استبيحت آخر مدينة وهي غرناطة.

بالرغم من القول إن هذا اللون الشعري ليس جديداً على الأدب العربي، فالمشرق العربي عرف هذا اللون من قبل والظروف التي عصفت بالأندلس مشابهة لما كان في المشرق، أدى إلى ظهور هذا اللون من الشعر في المشرق، فقد تعرضت المدن الإسلامية للعدو الغاضب، كما تعرضت للفتن الداخلية التي تهز المدينة كما تهزها الفتن الخارجية مع العدو، ولكن ظروف الأندلس هي التي أدت إلى ظهور شعر رثاء المدن على هذه الصورة التي دفعت إلى القول بأنه عرض أندلسي.

صحيح أن الشعراء رثوا بغداد، مثل ابن الرومي، ولكن بغداد لم تخرج عن نطاق الدولة العباسية، وصحيح أنها دُمرت ولكن المأمون أعاد اعمارها، أما المدن الأندلسية فقد خرجت عن رقعة الدولة الإسلامية، وذهبت إلى غير عودة، فكانت مأساة الأندلس أشد وأعظم على النفوس.

لقد كان رثاء المدن الأندلسية موافقاً للثراء العربي في كون الرثاء مدحا وتعدادا للمناقب، فرثاء المدن هو مديحا لها وتعداداً لمناقبها وذكرها لمحاسنها، وبكاء لهذه المناقب، وتحسراً على هذه

¹ الحميري، محمد عبد المنعم: صفة جزيرة الأندلس (مقتطفة من الروض المعطار)، ص 40-41، وكذلك أرسلان، شكيب: الحلل السندسية، ج 3، ص 541.

المحاسن، وتكلاً على أهل المدن الذين قتلوا، وأسروا، وسبوا، وانتهكت أعراضهم، وأبيحت حرمتهم وديست مقدساتهم، وحولت مساجدهم إلى كنائس، وأبدلت مآذنهم نواقيس، يقول أبو موسى هارون بن هارون في رثاء مدينه إشبيلية:

البيسط

قَدْ كَانَ حُسْنُكَ فَتَانَ الشَّبَابِ فَمَذ
أَصَبْتَ عَوَّضْتَ مِنْهُ الْقُبْحَ وَالْهَرَمَا .
يَا جِنَّةً زَحْرَحْتَنَا عَنْ زَخَارِفِهَا
ذُنُوبَنَا فَلَزَمْنَا الْبَتَّ وَالنَّدَمَا¹

ويقول شاعر مجهول في قصيدة رثى فيها طليطلة، وندب ما حدث لها ولأهلها، ووصف الاعتداء على المقدسات الإسلامية التي استباحها، فذهاب الإسلام في هذه البلاد من أكبر المصائب التي حدثت، وأمر هز المشاعر، ويستحث المشاعر في القارئ بوصف مشهد المساجد التي تحولت إلى كنائس، فقد أظهر الشاعر مشاعره الإسلامية، وحاول التأثير على مشاعر المسلمين لإنقاذ الأندلس:

الوافر

طليطلة أْبَاحَ الْكُفْرُ مِنْهَا
حَمَاهَا، إِنَّ ذَا نَبَأٍ كَبِيرِ
فَلَيْسَ مِثْلَهَا إِيْوانَ كَسْرِي
وَلَا مِنْهَا الْحورنقُ والسدير
مَسَاجِدُهَا كَنَائِسُ، أَيُّ قَلْبِ
عَلَى هَذَا يُقْرُ، وَلَا يَطِيرُ²

أما أبو البقاء الرندي فيسجل لنا في قصيدة في رثاء الأندلس نكبة الإسلام في تلك البلاد، ويظهر التحسر واللوعة على المقدسات الإسلامية التي تحولت إلى كنائس، هذه الصورة التي هزت وجدان الرندي وغيره من الشعراء احتفظ بها شعر رثاء المدن الأندلسية، ليسجل لنا مدى قسوة العدو، ويستحث المشاعر للدفاع عن الإسلام.

¹ المراكشي، ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج3، ص 382.

² المقري، التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص483-487، ج6، ص228-232.

يصور أبو البقاء الرندي حال الإسلام بعد سقوط المعازل الإسلامية؛ حيث أصبح حزينا ففيها الحنيفة تبكي من شدة حزنها كما يبكي المحب لفراق إلفه وحببيه، فهي تبكي على هذه المعازل التي خلت من الإسلام وأقبرت، فصارت الأندلس كلها نصرانية، عامرة بالكفر وجعلت النواقيس في الصوامع بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن... فيا لها من فجيعة ما أمرها، ومصيبة ما أعظمها، وطامة ما أكبرها فحتى الجمادات تأثرت لم حدث فأخذت المحاريب والمآذن تبكي وترثي نفسها.

البيسط

تَبْكِي الْحَنِيفِيَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ أَسْفٍ	كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الْإِلْفِ هَيْمَانَ
عَلَى دِيَارٍ مِنَ الْإِسْلَامِ خَالِيَةٍ	قَدْ أَقْفَرَتْ وَأَهَا بِالْكَفْرِ عُمَرَانُ
حَيْثُ الْمَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا	فِيهِنَّ إِلَّا نَوَاقِيسٌ وَصَلْبَانُ
حَتَّى الْمَحَارِيبُ تَبْكِي وَهِيَ جَامِدَةٌ	حَتَّى الْمَنَابِرُ تَرْتِي وَهِيَ عِيدَانُ ¹

يتكى الرندي في أبياته على العاطفة الدينية واستخدامها عنصراً بارزاً في رثائه، ويضيف إليها عناصر أخرى كالتشخيص والمشاركة الوجدانية بين الأشياء²، حتى تبدو المصيبة صارخة تغبر الوجوه وتعكر النفوس وتصم الأذان، وتلك وسيلة استعملها شعراء البكاء على الأندلس، فقد برزت الصفة الإسلامية فيها، فإن ذكر المصائب التي حدثت في الأندلس من شأنه أن يثير نخوة المسلم لينطلق إلى الجهاد إذا كان به بقية من نخوة إسلامية³.

كما وافق شعر رثاء المدن الأندلسية شعر رثاء المدن في المشرق بكونه مديحاً للميت، وافقه في كون الرثاء الصادق يقال حباً ووفاء، لا رغبة ولا رهبة، لذلك كان الشعر بعيداً عن التكلف

¹ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4 ص487-488، والمقري، أحمد بن محمد التلمساني: أزهار الرياض، تحقيق الأبياري وشلبي والسقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر: القاهرة، 1358هـ-1939م، ج1 ص47-50، والفاسي، ابن أبي زرع: الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة: الرباط، 1972م، ص112-114.

² عيسى، فوزي سعد: في الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية: الإسكندرية، 2009م، ص45 - 46.

³ ينظر: الشكعة، مصطفى: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص51 - 52.

والتصنع، فالشاعر لا يرثي ملكاً خوفاً ممن بعده، أو طمعاً في مال أو منصب، وإنما يرثي مدينة عشقها، وعاش فيها، يرثي مدينه بوازع ديني، أو وطني، أو حس إنساني لما رآه من تدمير وقتل وتكليل.

وموافقة شعر رثاء المدن في الشعر الأندلسي الطرائق العربية والآثار الشعرية السابقة، فلا غرابة في ذلك، لأن الرثاء -بصفة عامة- في الشعر الأندلسي "كان أوضح موضوع تجلت فيه آثار طريقة العرب"¹

لم يكن سقوط الأندلس نتيجة حرب مع العدو في المعركة فقط، بل كان نتيجة الغدر والخيانة أيضاً من ملوك المدن الأندلسية (ملوك الطوائف) من أجل مصالحهم الذاتية وعروشهم التي يريدون الحفاظ عليها على حساب حياة الأبرياء من شعوبهم؛ فسقوط الأندلس كان نتيجة غدر داخلي من الحكام، كما كان نتيجة غدر الإسبان النصارى الذين يحاصرون المدن بعد عجزهم عن دخولها بالقوة، ثم تتم المعاهدات التي تتضمن أن يحافظ الإسبان على أرواح أهل المدينة وأموالهم، وأعراضهم، ولكن ما أن يدخلوا المدينة حتى تصبح هذه المعاهدات سراباً، ويعيش أهل المدينة كل أنواع التكليل والقتل والتدمير.

على الرغم من أن السقوط كان نتيجة حروب وفتن داخلية، وحروب من قبل النصارى والإسبان، إلا أن شعر رثاء المدن الذي قيل في رثاء المدن التي سقطت بسبب الفتن الداخلية أقل بكثير من الشعر الذي يرثي المدن التي سقطت بيد الإسبان، ولعل سبب ذلك خوف الشاعر من أن يحسب له تأييده لنظام سياسي معين، والشعر الذي رثى الأندلس بصفة عامة، سواء ما قيل في المدن التي سقطت في الحروب والفتن الداخلية، أو ما قيل في رثاء المدن التي سقطت في حروب خارجية، كان قليلاً أيضاً، إذا ما قورن بأي غرض شعري آخر، وخاصة إذا ما قورن بغرض شعر الخمر واللهو والتطرف، وذلك ما نعتقد أثراً لطبيعة الحياة في الأندلس، وهو ما كان سبباً رئيساً في إغراق الشعب في الملذات، والابتعاد عن حياة النقش والحروب، مما كان له الأثر الكبير في سقوط الأندلس.

¹ عباس، إحسان: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ط5، دار الثقافة: بيروت، 1978م، ص117.

من خلال ما سبق من نماذج لتلك القصائد التي تراثي مدن الشرق التي تعرضت للمحن والفتن وجدناها تراثي حالات مشابهة لتلك التي رثاها شعراء مدن الأندلس، فالخراب في العمران والقتل والدماء، والمرأة الموضع التي حيل بينها وبين رضيعها، وسبي النساء والأطفال، وهتك الأعراس، والمساجد التي غدت كنائس، وغيرها من الصور التي عبر عنها الشعراء في رثائهم، كما أننا نلاحظ تشابهاً في شخصية العدو في شعر رثاء المدن المشرقية، وشعر رثاء المدن في الأندلس؛ فالعدو يحمل صفات متشابهة، حين كان العدو صليبياً يهاجم الإسلام قبل أي شيء آخر، ويعمد إلى الخراب والدماء، ويستهدف المقدسات، وإن كنا نقر بهذا التشابه فهذا لا يعني أن يكون الشرق مقلداً للأندلس، أو أن يكون الأندلس مقلداً للشرق ولكن تكررت الأحداث والظروف فتكررت الأفكار وتشابهت المعاني¹ " لأن الواقع المفجع نفسه قد تكرر فتكرر معه خيال الشاعر وتصويره"².

ويمكننا القول: إن شعر رثاء المدن في الأندلس قد برز عن شعر رثاء المدن في المشرق، ويعود السبب في ذلك لطبيعة الكارثة التي حلت بالأندلس من حيث الفظاعة؛ لأن ذهاب الأندلس كان ذهاباً كاملاً فقد ذهبت ثقافتها ولغتها ودينها، وتغيرت حضارتها وسلبت أرضها، لكن ما حصل في المشرق كانت جرائم فتن وحروب جزئية ومؤقتة، ولم تكن ذهاباً دائماً للإسلام والمسلمين.

إن الحديث عن رثاء المدن الأندلسية يدفعنا للحديث عن قضية مهمة تتعلق بهذا الموضوع وهي ضياع جزء من شعر رثاء المدن فالأحداث والوقائع تؤكد أن حجم الشعر الأندلسي الذي رثى المدن الأندلسية، وهو جزء من التراث العربي، والإسلامي، وأنه قد تعرض للضياع؛ فهذا الكم الذي وصلنا من شعر رثاء المدن الأندلسية لا يمكن أن يكون فقط ما قيل في رثاء المدن الأندلسية الجميلة، التي تعرضت لهذا القدر من الخراب والدمار، أضف إلى ذلك أن قول الشعر في الأندلس لم يكن حكراً على شعرائها فقط بل إن الأندلسيين جميعاً، أو أغلبيتهم يقولون الشعر من الحكام إلى

¹ الزيات، عبد الله محمد: رثاء المدن في الشعر الأندلسي، ص 104
² البيومي، محمد رجب: الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، ص 217.

العامّة حتى إن "أي فلاح يحرث بأثوار في (مدينة) شلب يرتجل ما شئت من الأشعار فيما شئت من المعاني".¹

ويؤكد عبد العزيز عتيق أن الشعر الأندلسي "لم يكن وفقاً على الشعراء وحدهم وإنما شاركهم في نظمه وإلى حد الإجابة أحياناً كثيرون من أهل البلاد على اختلاف أهوائهم ومشاربهم... وقلما خلت ترجمة أندلسي من شعر منسوب إليه، سواء أكان المترجم له أميراً أو وزيراً، أو كاتباً أو فقيهاً ونحوياً، أو فيلسوفاً، أو طبيبياً أو غير ذلك" فأين كل هذا الشعر؟ وأين شعراء شلب من مآساتها حين دخلها النصارى وعاثوا فيها الفساد؟²

ولعل مما يلفت النظر إلى ضياع شعر رثاء المدن الأندلسية هو خلو هذا من الشعر التّسوي الأندلسي، على الرغم من أنه "ظهر إلى الوجود عدد من الشواعر النابغات في قول الشعر وبرعن في هذا الفن، ولكن شعرهن ضاع وعفت عليه يد الزمان وبقيت لنا أسماء قليلة بمكتباتنا الضخمة"³

3»

إن ضياع التراث كان سبباً لضياع الكثير من شعر رثاء المدن الأندلسية، وقد تتعدد صور هذا الضياع كإحراق كتب كثير من الأدباء والشعراء، بسبب اتهامهم بالزندقة، أو لوجود عداوة بين الشاعر والأديب مع قصر من قصور الأندلس، كما حدث مع ابن حزم إذ إنه اتهم من قبل قصر بني عباد بإشبيلية بالزندقة لاتباعه مذهباً فقهياً مخالفاً لمذهب القصر⁴، فكانت ردة فعل ابن حزم لما سمع بإحراق بني عباد لكتبه أن قال أبياتاً منها:

دَعُونِي مِنْ إِحْرَاقِ رَقٍّ وَكَأَغِدِ
فَإِنْ تُحْرِقُوا الْقِرْطَاسَ لَا تُحْرِقُوا الَّذِي
وَقُولُوا بَعْلِمِ كَيْ يَرَى النَّاسُ مَنْ يَدْرِي
تَضَمَّنَهُ الْقِرْطَاسُ، بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي
يَسِيرُ مَعِي حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ رِكَائِي
وَيَنْزِلُ إِنْ أَنْزَلَ وَيُدْفَنُ فِي قَبْرِي⁵

¹ غرسيا غومس، أميليو: الشعر الأندلسي، ص 46.

² عتيق، عبد العزيز: الأدب العربي في الأندلس، ص 197.

³ أبو شقرا، سعاد: الخالدات منهن، ص 49.

⁴ الشنتريني، ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق 1، ج 1، ص 169.

⁵ الشنتريني، ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق 1 ج 1 ص 171

فكيف لشاعر مثل ابن حزم ابن قرطبة يرى ما حل بمدينة من خراب ولا يرثيها؟ وليس ابن حزم الوحيد الذي تم إحراق كتبه، بل هناك ابن الأبار، الذي تعرض لمحنة مع القصر الحفصي في تونس، فقاموا بإحراق كتبه بعد اتهامه بالزندقة، فلم يصل إلينا من شعر ابن الأبار في رثاء المدن الأندلسية إلا قصيدتان اثنتان، الأولى: القصيدة السينية التي مدح فيها سلطان إفريقية (تونس) الحفصي؛ لإنقاذ أهل بلنسية والأندلس من النصارى الإسبان، والثانية: التي وردت في رثاء الأندلس، وكانت أيضاً في رثاء بلنسية والاستجد بالسلطان الحفصي وهي الهمزية التي مطلعها:

الكامل

نَادَتْكَ أُنْدَلُسُ فَلَبَّ نِدَاءَهَا واجْعَلْ طَوَاغِيَتَ الصَّلَيبِ فِدَاءَهَا¹

ولابد أن تشير أيضاً إلى أن لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ) أديب مشهور، عمل كاتباً في قصر بني الأحمر كان من الذين تعرضوا إلى منحة سياسية راح ضحيتها مؤلفاته، وهو شاعر عاصر سقوط كثير من المدن التابعة لمملكة غرناطة في يد النصارى الإسبان، أَيْعَقَلُ ألا يكون للسان الدين شعر في رثاء المدن؟!!

أما القسم الأكبر من ضياع التراث العربي الإسلامي في الأندلس فقد كان بعد سيطرة النصارى لكل مدن الأندلس، فقد أخذوا يحرقون ما في نفوس الأندلسيين من حب وتقدير للحضارة العربية، فقاموا بحرق الآلاف من المؤلفات من كنوز التراث العربي الإسلامي في الأندلس، ففي قرطبة وحدها أتلّفوا ما يزيد عن المليون مؤلف، وهذا ما أكدّه المؤرخ الفرنسي فيادور "أن عدد المجلدات المحررة بلغات شتى، وظفر بها جنود (فرديناند)، وطاوعتهم نفوسهم المفحمة تعصباً على إحراقها يفوق المليون، هذا في مدينة قرطبة دون غيرها"²

¹ التلمساني، المقري: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج6، ص223-228.

² بك، أحمد رضا: وثائق عن الحروب الصليبية، ترجمة محمد أبو رقية، وآخر، ط3، تونس: دار بو سلامة، ص 118-119.

أُضِفَ إلى ذلك ما أُحْرِقَ في غرناطة "في سنة 1499م، حيث أمر (الكردينال خميس) مطران طليطلة وعميد الكنيسة الإسبانية بجمع جميع الكتب والآثار العربية في غرناطة، آخر مدينة أندلسية أُخرج منها المسلمون، وأبيدت فيها حضارة الإسلام، وإحراقها في ساحات المدينة .. وهلكت على هذا النحو نحو مائة ألف أو تزيد من الآثار العربية"¹

لقد سببت هذه الحرائق خسائر كبيرة في التراث العربي الإسلامي، والأندلسي فكانت نتيجة هذه الخسائر أن "المصادر التي وصلتنا عن الحكم الإسلامي في الأندلس ضئيلة جداً، إذ فقد أكثرها إبان الغزوات البربرية والحرائق التي نجمت عنها، والحروب والمعارك الكثيرة التي كانت الأندلس ميداناً لها"²، وبالتالي لا بد أنه يترتب على ضياع التراث ضياع تراث شعري رثى المدن الأندلسية.

ومن الأدلة على ضياع التراث الشعري الذي يرثى الأندلس أن هناك قصائد لم يصل إلينا منها سوى بضعة أبيات، وهذا ما يشير إليه المؤرخون في تدوين هذه القصائد كما حدث في تدوين ابن الخطيب لقصيدة إبراهيم بن خلف بن فرقد القرشي، العامري التي مطلعها:

المتقارب

ألا مسعدٌ منجزٌ ذو فِطْنٍ يَبْكِي بِدَمْعٍ مُعِينٍ هَاتِنِ
جَزِيرَةً أُنْدَلَسٍ حَسْرَةً لا غَالِبَ مَنْ حُقُودِ الزَّمَنِ
فابن الخطيب لم ينقل لنا القصيدة كاملة وإنما اكتفى بتدوين ثمانية أبيات منها وبقوله عنها: "وهي طويلة، ولدي خلاف فيمن أفرط في استحسانها"³

والحال نفسها نجدها عند ابن سعيد الأندلسي (ت685هـ) في كتابه (اختصار القدح)¹ يذكر أن لهارون بن عبد الله بن هارون قصيدة في رثاء ابن الرئيس أبي علي بن خلاص أمير سبته وهي التي مطلعها:

¹ الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط1، مصر: مكتبة الخانجي، 1974م، ج1مقدمة المحقق ص8.

² الكزبري، سلمى الحفار: في ظلال الأندلس، (مجموعة محاضرات)، دمشق: مطبعة ألف باء، ص 78.

³ الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1، ص 372.

الطويل

هُوَ الرَّزُّ مَا أَبْقَى عَزِيزًا وَلَا صَبِيرًا دِهِينًا مِنْ الْأَيَّامِ بِالْبَطْشَةِ الْكُبْرَى
فهو يدون من القصيدة فقط أربعة أبيات، ثم يقول بعد كلام طويل: "إن الشاعر قد ختمها بذكر ما يليق به إشبيلية في ذلك الأوان من العصر"².

وقضية بتر القصائد لم تقتصر على هذين المثالين ولكنها قضية ملاحظة في قصائد رثاء المدن، بل ولم تقتصر على هذا النوع من القصائد بل شمل الأمر أغلب أغراض الشعر الأندلسي، وهو ما أشار إليه (غرسيا غومس) بقوله: "وإذا نحن استثنينا بضعة دواوين وقصائد مشهورة وصلت إلينا كاملة، فإن ما لدينا من الشعر الأندلسي قد وصل إلينا مقطعات، مبتسرا يتألق هشيمه الدقيق ببريق الماس"³.

إن الحديث عن ضياع القصائد وبتها يدفعنا للحديث عن قضية أخرى تتعلق بهذا الشعر، وهو عدم نسبة بعض القصائد إلى قائلها، أو إغفال اسم الشاعر، ومن الأمثلة لذلك قصيدة رثاء طليطلة التي مطلعها:

الوافر

لِتُكَلِّكَ كَيْفَ تَبَيَّسِمُ الثُّغُورُ سَرُورًا بَعْدَمَا بَيَّسَتِ ثُغُورُ
أَمَا وَأَبَى مُصَابٌ هُدَّ مِنْهُ تَبْيِيرُ الدِّينِ، فَاتَّصَلَ النَّبُورُ⁴
ومثلها قصيدة في رثاء رندة، وعدد من المدن الأندلسية، ومطلعها:

الطويل

أَحَقًّا حَبَا مِنْ جَوِّ رَنْدَةَ نُورَهَا وَقَدْ كَسَفَتْ بَعْدَ الشُّمُوسِ بُدُورَهَا¹

¹ ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى: اختصار الفتح المعلى، اختصره أبو عبد الله بن خليل، تحقيق إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية: القاهرة، 1959م، ص 145.

² المصدر نفسه، ص 145.

³ غرسيا غومس، أميليو: الشعر الأندلسي، ص 26.

⁴ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 6 ص 288، ج 4 ص 483، وفي رواية أخرى (بتست ثغور).

وكذلك أغفل اسم الشاعر في القصيدة التي قيلت في بكاء محنة العرب المنصرين بعد استيلاء الإسبان على غرناطة وجميع الأندلس، والتي وجهت إلى (أبي يزيد) السلطان العثماني ومطلعها:

الطويل

سَلَامٌ كَرِيمٌ دَائِمٌ مُتَجَدِّدٌ أَحْصُ بِهِ مُوَلَايَ خَيْرَ خَلِيفَةٍ
سَلَامٌ عَلَى مُوَلَايَ ذِي الْمَجْدِ وَالْعَلَا وَمَنْ أَلْبَسَ الْكُفَّارَ ثُوبَ الْمَذَلَّةِ
سَلَامٌ عَلَى مَنْ وَسَّعَ اللهُ مَلَكُهُ وَأَيَّدَهُ بِالنَّصْرِ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ²
ولعل من الأسباب التي أدت إلى عدم نسبة بعض القصائد إلى قائلها هو الضياع الذي حدث للتراث العربي الأندلسي والذي كان شعر رثاء المدن قد طاله هذا الضياع، وهذا التلف.

ولعل هناك سبباً آخر أدى إلى حجب أسماء الشعراء، هو السبب السياسي، فقد كانت بعض القصائد مناهضة لنظام الحكم في الأندلس، ولذلك نجدها لا تنسب إلى قائلها، وهذا ما حدث في قصيدة رثاء طليطلة التي تدعو إلى الثورة، ومناهضة نظام الحكم، ومنها:

الوافر

وَلَا تَهَيُّوْا وَسَالُوْا كُلَّ غَضَبٍ تَهَابُ مُضَارِبًا مِنْهُ النُّوْرُ
وَمَوْتُوْا كُلُّكُمْ فَالْمَوْتُ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْ تُجَارُوا أَوْ تُجُوْرُوا
فَلَا دِيْنَ، وَلَا دُنْيَا وَلَكِنْ غُرُوْرٌ بِالْمَعِيْشَةِ، وَمَا غُرُوْرُ
رَضُوْا بِالرِّقِّ، يَا اللهُ مَاذَا رَأَى، وَمَا أَشَارَ بِهِ مُشِيْرٌ²

¹ خفاجة، محمد عبد المنعم: قصة الأدب في الأندلس، مطابع الغندور، منشورات مكتبة المعارف: بيروت، 1962م، ج 1 ص 132.

² ، المقري، أحمد بن محمد التلمساني: أزهار الرياض، ج1، ص195.

² التلمساني، المقري: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج6، ص228، و ج4 ص483.

وهو يقول للأندلسيين جميعاً ولأمراء الطوائف: هبوا من نومكم للأخذ بثأر دينكم، ولا تهنوا بل جالدوا الأعداء مجالدة ضارية. ويستصرخ كل أندلسي أن ينازلهم حتى الرمق الأخير، فهذه الأبيات هي دعوة للثورة وحمل السلاح للوقوف في وجه الإسبان، ووجه الحكام المتعاونين معهم

الفصل الثاني

روافد النزعة الدينية

الرافد الأول: القرآن الكريم

- التأثر بالمفردة القرآنية

- التأثر بالمعنى القرآني

- التأثر بالقصة القرآنية

الرافد الثاني: الحديث النبوي الشريف

الرافد الثالث: الشعائر الإسلامية والمقدسات الدينية

تقديم

تعددت الينابيع الثقافية والمعرفية التي استقى منها الشعراء ثقافتهم، ونهلوا من معينها، وكان هؤلاء الشعراء ينهلون من العلوم والفنون كلها، لذا جاءت لغتهم وأشعارهم تتم عن هذا التنوع في المصادر المعرفية، والينابيع الفكرية اللغوية، فكان الدين الحاضر الأول في هذه المصادر، حيث إننا نتحدث عن مجتمع مسلم، سادته الثقافة الإسلامية لقرون متتالية، كما أننا نتحدث عن فترة كلها مآس وأوجاع لهؤلاء الشعراء لما حل ببلادهم من مصائب وويلات، وهذا يجعل الإنسان أكثر تقرباً إلى الله، لذلك فقد رأينا النزعة الدينية بوضوح في شعر رثاء الأندلس، وكانت هذه النزعة متعددة الروافد، متنوعة المشارب.

الرافد الأول: القرآن الكريم

تجلى الأثر القرآني في شعر رثاء المدن الأندلسية؛ لأن القرآن الكريم " من أهم الوسائل المنتجة للدلالات، فهو معين لا ينضب، بما يحتويه من قصص وعبر وأحداث، كيف لا وهو كلام الله المعجز، حيث نرى الكثير من الشعراء يتكئون على مفرداته ومعانيه، ويقتبسون من آياته، ليعكسوا مدى ما يشعرون به تجاه أحداث وقضايا العصور التي يعيشون فيها"¹.

إلا أن هناك من الدارسين من ينكر أثر القرآن الكريم في الشعر، ويرى أن أثره محدود جداً لا يتجاوز بعض المفردات الإسلامية، مثل: الله، الدين، الميعاد والخلود، وعند شعراء قلة فقط، ومن هؤلاء عز الدين إسماعيل الذي يرى أن الإسلام لم يكن له أثر في الأدب والنقد².

لكن نظرة في الشعر والأدب بعامة وفي شعر رثاء المدن الأندلسية بخاصة تؤكد أن النص القرآني بقصصه ومعانيه ولغته أكثر المصادر توظيفاً، وأوسعها تأثيراً في المضامين الشعرية قديماً وحديثاً، ولعل سبب هذا الاهتمام في توظيف النص القرآني ما يمثله القرآن الكريم من خصوبة

¹ المبحوح، حاتم عبد الحميد محمد: التناص في ديوان لأجل غزة، (رسالة ماجستير)، الجامعة الإسلامية، غزة، 1431هـ / 2010م، ص64.

² ينظر: إسماعيل، عز الدين: الأسس الجمالية في النقد الأدبي، دار الفكر العربي: القاهرة، 1992م، ص157.

وعطاء متجددين للفكر والشعور، فضلاً عن تعلق ثقافة الشعراء به تأثراً وفهماً واقتباساً، فهو سبيل للشاعر في إيصال شعوره للمتلقي¹.

وبدأ الاهتمام بالقرآن الكريم في الأندلس منذ الفتح الإسلامي شأنه في ذلك شأن بقية البلاد التي فتحها المسلمون، وقد تطور هذا الاهتمام عن طريق التعليم بالمساجد ودور العلم، فاهتم بالقرآن الكريم الحاكم والمحكوم، وشجعت الدولة على تعلمه، و"أخذ صيغة رسمية بعد أن كفلته الدولة وأصبح على مراحل أكثر عمقاً وتخصصاً بعد تجاوز الطالب الدراسات أو المراحل الأولية"².
الأولية"².

ويؤكد ابن خلدون في حديثه عن التعليم وطرقه ومناهجه في الأندلس على هذا الاهتمام بقوله: "وأما أهل الأندلس، فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسسه ومنبع الدين والعلوم، جعلوه أصلاً في التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب، ولا تختص عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما، وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة..."³

وعرض القابسي (ت 403هـ) إلى منهج الأندلسيين في التعليم بقوله: إن منهجهم ينقسم إلى قسمين: إجباري واختياري؛ الإجباري هو: تعليم القرآن والصلاة والدعاء، وبعض النحو والعربية، والقراءة والكتابة. والاختياري هو: الحساب وجميع النحو، والشعر، وأيام العرب وأخبارها⁴.

كان للاهتمام بالقرآن الكريم أثر كبير في تكوين القاعدة الفكرية والثقافية في الأندلس عامة، وعند الشعراء خاصة، وكان لا بد أن تأتي بثمارها في ثقافتهم الأدبية، والمنتجع لأدب أهل الأندلس

¹ ينظر: جدوع، عزة محمد: التناسل مع القرآن الكريم في الشعر العربي المعاصر، مجلة فكر وإبداع، ع9، الكويت، 1953م، ص136-137.

² ينظر: العاني، محمد شهاب الدين: أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة 92هـ - 422م، 422م، ط1، عمان: دار دجلة، 1429هـ - 2008م، ص12.

³ ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص 538.

⁴ ينظر: العكش، إبراهيم علي: التربية والتعليم في الأندلس، دار الفيحاء: عمان، 1986م، ص166.

يلاحظ التأثير القرآني واضحاً منذ أن نزل العرب في هذه الأرض، ومنذ أن خاطب القائد طارق ابن زياد جنده وما نسب إليه من أبيات في هذه المناسبة:

الطويل

رَكِبْنَا سَفِينًا بِالْمَجَازِ مُقَيَّرًا عَسَى أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مِنَّا قَدْ اشْتَرَى
نَفُوسًا وَأَمْوَالًا وَأَهْلًا بِجَنَّةٍ إِذَا مَا اشْتَهَيْنَا الشَّيْءَ مِنْهَا تيسَّرَا
ولسنا نُبالي كيف سالت نفوسنا إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرًا 1
فالتأثر القرآني واضح في الأبيات، فالمعنى مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾².

كما أن قدسية القرآن الكريم ومكانته من البلاغة والفصاحة واجتماع الأمة حوله، كان لا بد من أن يأسر قلوب الشعراء ويطغى على عقولهم، ويضمونه في أشعارهم، لذا نلاحظ مساحة كبيرة للتأثر الإسلامي في الشعر الأندلسي عامة، وفي هذه الدراسة التي تسلط الضوء على شعر رثاء المدن الأندلسية، نلاحظ الأثر الإسلامي، ونلاحظ أثر القرآن الكريم بشكل خاص في هذا اللون من الشعر، فقد كان الرائد الأكثر حضوراً في هذا الشعر، وبدا هذا التأثير في جانبين، الأول: من الناحية اللغوية اللفظية، والآخر: من الناحية المعنوية الدلالية، وهذا ما سنعرضه في الصفحات القادمة.

التأثر بالمفردة القرآنية

تجلت النزعة الدينية واضحة في شعر رثاء المدن الأندلسية، وكان للقرآن الكريم المساحة الأكبر في هذه النزعة، فكثير من الموضوعات التي يثيرها هذا الشعر هي موضوعات مستمدة من القرآن الكريم، الذي يعد مقوماً أساسياً في حياة المسلم، وقد بدا هذا الأمر في كثير الألفاظ القرآنية التي استعارها الشعراء وضمونها قصائدهم، وزينوا بها شعرهم.

¹ التلمساني، أحمد بن محمد المقرئ: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج1، ص265.

² سورة التوبة، آية 111.

فابن حزم (ت 456هـ) يشير في رثائه قرطبة إلى القرآن الكريم، فهو يصف ما حلّ بقرطبة من دمار وخراب فهذه الديار كأنها لم تكن مسكونة من قبل، فاستخدم تعبير (كأن لم تغن بالأمس) متأثراً بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾¹ فقوله تعالى: " كأن لم تغن بالأمس" أي كأنها ما كانت يوماً، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن، فالشاعر يقتبس التعبير القرآني ليعبر عن الدمار الذي حدث في الأندلس.

وجاءت هذه الاستعارة اللفظية متّحدة مع المعنى ومنسجمة معه، إذ جعلت النص أكثر تأثيراً وتعبيراً عن مشاعر الغربة عند الشاعر، والحنين للوطن الضائع، فاللفظ القرآني في النص الشعري دفع المتلقي إلى التعاطف مع الشاعر كما جعل المتلقي يشعر بمقدار الدمار الذي حدث للأندلس، يقول ابن حزم:

الطويل

سَلَامٌ عَلَى دَارِ رَحَلْنَا وَغُودِرَتْ خَلَاءَ مِنَ الْأَهْلِيِّينَ مُوحِشَةً قَفُورًا
تَرَاهَا كَأَنَّ لَمْ تَغْن بِالْأَمْسِ بَلَقَعَا وَلَا عُمِرَتْ مِنْ أَهْلِهَا قَبْلَنَا دَهْرًا
فِيَا دَارُ لَمْ يُفْفِرْكَ مِمَّا اخْتِيَارْنَا وَلَوْ أَنَّنَا نَسْطِيعُ كُنْتِ لَنَا قَبْرًا²

كما أن ابن شهيد في رثاء قرطبة يستخدم لفظة (قوارير) التي وردت في القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِانِيَّةٍ مِّنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴾³ قوارير من فضة قدروها تقديراً³ يقول:

الطويل

وَيَا مُجْتَلِي تِلْكَ الْبَسَاتِينَ حَقَّهَا رِيَاضُ، قَوَارِيرِ غَدَّتْ بَعْدَنَا غَبْرًا⁴

¹ سورة يونس، آية 24.

² لسان الدين ابن الخطيب السلماني: أعمال الاعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، ط 2، دار المكشوف: بيروت: لبنان، 1956م، ص 107-108.

³ سورة الإنسان، آية 15-16.

⁴ الأندلسي، ابن شهيد: الديوان، جمع يعقوب زكي، القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ص 109.

وجاء استخدام الشاعر للفظ القرآني قوارير في النص الشعري ليربط ذهن المتلقي بأن الأندلس هي جنة؛ فهي من نعم الله تعالى على المؤمنين في الجنة، ولكن الحرب والدمار غير ودمر هذه الجنة.

ويحاكي الشاعر ابن أبي الخصال (ت 539 هـ) في مسمطة في منادب قرطبة والزهراء قوله تعالى: ﴿يَصْحَجِي السَّجْنَءَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾¹ فقد جاء النداء على لسان يوسف عليه السلام يقول ابن أبي الخصال:

الطويل

فيا صاجبي إن حان قبلك مصرعي وكنت على عهد الرضى والهوى معي
فخط بضاجي ذلك الثرب مضجعي وذرنى فجار القوم غير مروع
فَعِنْدُهُمُ لِلجَارِ أَهْلٌ وَمَرْحَبٌ 2

فقد استخدم يوسف عليه السلام النداء (يا صاحبي السجن) رغبة منه باستدعاء المحبة بينهم، والتذكير بها، وقد أنزلهما منزلة البعيد على الرغم من قريتهما: المكاني والزماني منه؛ ذلك إما لعلو منزلتهما ورفيع شأنهما عنده، أو لإشارة منه إلى غفلتهما في أودية الضلال، فتلطف عليه السلام بهما في إرشادهما وردهما إلى الحق، فقد جاء بالنداء تمهيداً منه لقبول التعبير مهما كان وقعه مؤلماً عليهما، فالشاعر ابن أبي الخصال يستخدم النداء لصاحبه بعد أن رأى القتل والترويع ليجعل له مكاناً بجانبه في القبر، ويذكره بحق الجار على الجار الذي أقره الإسلام.

إنّ استحضار ابن أبي الخصال النداء الذي استخدمه سيدنا يوسف عليه السلام، وهو في محنته في السجن يعيد إلى ذهن المتلقي تلك المحنة، ويربط مستخدم هذا النداء بحال سيدنا يوسف، وما

¹ سورة يوسف، آية 39.

² الأصفهاني، عماد الدين: خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، تحقيق أدريتش، وأذرنوش، نقحه وزاد عليه محمد المرزوقي، ومحمد العروسي المطوي، والجيلاني ابن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر: 1971م - 1972م، ج3، ص 453-459، وابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 2 ص 396-403 وشكيب أرسلان: الحلال السندسية، ج3، ص 367-368.

لاقاه من ظلم أدى به إلى الوقوع في السجن، لقد قرب استعمال اللفظ القرآني المعنى للقارئ بل جذب انتباهه وتعاطفه مع الشاعر، وأوحى له أن دعوة الشاعر وموقفه مشابهان لموقف يوسف عليه السلام ودعوته وما وقع عليه من ظلم.

كما تمثل أبو الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج في رثائه بني صمادح والأندلس أيام الفتنة لفظة سكارى التي وردت في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾¹ فألفيتهم بسبب ما يحدث في الأندلس يتميلون تحسبهم سكارى، ولكنهم متعبون من القتل والحرب، يقول أبو الحسن:

الرجز

يَفْتَحُمُ الْهَوْلَ بِهَا اغْتَرَارًا فِي فِتْيَةٍ تَحْسُبُهَا سَكَارَى
قَدْ افْتَرَشْنَا الْمُسَدَّ الْمُغَارَا حَتَّىٰ إِذَا شَارَقَتِ الْمَنَارَا
هَبَّ كَمَا بَلَ الْعَلِيلُ الْمُحْتَضِرُ²

وفي رثاء ابن العسال لمدينة بريشتر يلجأ إلى الأخذ من القرآن لوصف ما فعله الكفار بالمدينة من دمار وتخريب بقوله: "جاسوا خلال الديار" الذي اقتبس من القرآن الكريم، وكأنه يعود بنا إلى ما فعله بنو إسرائيل من إفساد في الأرض فقال الله تعالى عنهم: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾³ وفيها تصوير لقسوة الأعداء في حملتهم على بريشتر، وتكالبهم من أجل الفتك بالمسلمين الذين لم يحركوا ساكنا لنجدتها، فهم بذلك جبناء يخافون ملاقاته عدوهم يقول ابن العسال:

الكامل

وَلَقَدْ رَمَانَا الْمُشْرِكُونَ بِأَسْهُمٍ لَمْ تُخْطِ لَكِنْ شَأْنُهَا الْإِصْمَاءُ

¹ سورة النساء، آية 43.

² المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص 104-105.

³ سورة الاسراء، آية 5.

هَنَكُوا بِخَيْلِهِمْ فُصُورَ حَرِيمِهَا لَمْ يَبْقَ لَا جَبَلٌ وَلَا بَطْحَاءُ
جَاسُوا خِلَالَ دِيَارِهِمْ فَأَلْهَمَ بِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ غَارَةَ شَعْوَاءُ
بَاتَتْ قُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ بِرُعْبِهِمْ فَحَمَاتُهَا فِي حَزْبِهِمْ جُبْنَاءُ¹

استخدم الشاعر التعبير القرآني (جاسوا خلال الديار) وهذا يدل على مدى تأثير الشاعر بالقرآن، كما أن استخدام الشاعر للتعبير القرآني قرب إلى المتلقي الصورة حتى يجد نفسه أمام صورة متحركة ترسم ما يحدث للأندلس، وتعطي صورة واضحة عن هوية العدو، فمصادقية القرآن الكريم وقداسته وفرت للنص مصادقية أمام المتلقي.

إن ما حل بالأندلس أثار الأشجان والأحزان، فالقتل والدمار هزت النفوس، وروعت القلوب، ولكن من أشد ما هز النفوس وروعها هو استباحة الأعراض، وسبي النساء بعد أن كن مصونات عفيفات، هذا المشهد روع الشاعر المجهول الذي رثى مدينة طليطلة، فاقتبس من القرآن وصفاً لنساء الأندلس وشبههن بالهور العين في الجنان، مبيناً ما حلَّ بهن، فنساء الأندلس قاصرات الطرف، وهذا الوصف ذكر في القرآن الكريم في وصف الحور العين في الجنة قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ لَهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾² فالشاعر يستثير حمية المسلمين لا للدين الحنيف فحسب، بل أيضاً للعرض الذي طالما سلَّت السيوف من أجله، فقد امتهنت النساء، و تحوّلن إلى خادمات في بيوت الأعداء، وإنه لحري أن يثور لذلك دم كل مسلم، وأن يمتشق الحسام للنثار والفتك بأعداء الإسلام، يقول الشاعر:

الوافر

أَدْيَلَّتْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ كَانَتْ مَصُونَاتٍ مَسَاكِنُهَا الْقُصُورُ؟³

إن استخدام التعبير القرآني أعطى البيت قوة في اللفظ والمعنى، فالتعبير جاء منسجماً مع البيت، وموسيقاه الشعرية، كمان أنه أعطى المعنى قوة وتأثيراً، فلو استخدم الشاعر لفظة عفيفات أو شريفات لما كانت القوة والتأثير نفسها.

¹ الحميري، محمد عبد المنعم: صفة جزيرة الأندلس (مقتطفة من الروض المعطار)، ص 40-41، وكذلك أرسلان، شكيب:

شكيب: الحلل السندسية، ج 3، ص 54

² الرحمن، آية 56.

³ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 4، ص 483.

ومن سورة الرحمن يستخدم أبو موسى هارون بن هارون في رثائه مدينة إشبيلية التعبير القرآني (المنشآت) تعبيراً عن السفن الجارية في البحر من قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾¹، يقول الشاعر:

البيسط

وَيَمَّمُوا حَمَصَ فِي جَمْعٍ يَضِيقُ بِهِ ذَرْعُ الْفَضَاءِ فَسَوَى الْوَهْدَ وَالْأَكْمَا
فَالْبَحْرُ بِالْمُنْشَآتِ ارْتَجَّ مِنْ دُعْرِ وَالْبَرُّ بِالْمَرْهَفَاتِ الْمَاعِ فَاكْتَنَّمَا²
فالشاعر استخدم لفظة المنشآت تعبيراً عن السفن الموجودة في البحر؛ من أجل الهجوم على إشبيلية، فشنخ البحر أنه يرتج من الخوف والذعر، والبر يلتاع من ذعراً وهلعاً.

واستغل الشعراء الصورة البشعة للخصم وما ارتكبه من فجائع بحق المسلمين في الأندلس، لاستنهاض عزائم المسلمين، للأخذ بالتأثر، وتخليص المدن من براثن الأعداء المحتلين الذين عطلوا شعائر الإسلام، واستبدلوا شعائر المسيحية بها، فالشاعر ابن الأبار يخاطب الملك الحفصي أبا زكريا، قائلاً:

البيسط

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُنْصُورُ أَنْتَ لَهَا عَلِيَاءُ تُوسِعُ أَعْدَاءَ الْهُدَى تَعْسَا
وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَنْبَاءُ أَنَّكَ مَنْ يُحْيِي بِقَتْلِ مُلُوكِ الصُّفْرِ أُنْدَلْسَا
طَهَّرَ بِلَادَكَ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ نَجَسٌ وَلَا طَهَّارَةٌ مَا لَمْ تَغْسِلِ النَّجْسَا³
فاستخدم الشاعر في قصيدته الصور الفنية والتراكيب اللغوية التي تتناسب مع الموقف للتأثير في الذات المتلقية (الملك الحفصي) التي تتناسب ومكانته الدينية؛ للقيام بما تفرضه عليه عاطفته الإسلامية، لتطهير المدن المحتلة من الدنس والكفر.

¹ الرحمن، آية 24.

² المراكشي، ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص 382.

³ راجع القصيدة في المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج6، ص 200-204 و ج4، ص 457-460.

كما استخدم الشاعر الدلائل والتراكيب للكشف بوضوح عن شخصية العدو المحتل، الذي يتوجب طرده من تلك المدن مثل: (إنهم نجس، الأعادي)، وهذه الصفات مرتبطة بالعاطفة الدينية التي يريد الشاعر استنارتها بالمتلقي.

وجاء اعتماد الشاعر على المعاني الدينية، ليجعل الخطاب الشعري أعمق تأثيراً في نفس المتلقي، فالتعبير الذي استخدمه لوصف العدو (إنهم نجس) مستوحى من النص القرآني في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾¹

إن استدعاء النص القرآني في بيت ابن الأبار، قائم على التشبيه، فهو يشبه صورة العدو الكافر الذي وصفه بالرجس والدنس، تماثل صورة كفار مكة الذين كفروا بالله، وبهذا فالشاعر يدعو إلى الجهاد وتطهير البلاد من رجس العدو، ولا سيما الملك الحفصي الذي يقع التطهير على عاتقه، فنجد أن استحضار النص القرآني جاء ليتناسب مع السياق الشعري للنص؛ مما أسهم في إثراء الفكرة، وتعميق الرؤية الإنسانية لقارئ هذه الأبيات، فيشعر بنبرة خطابية عالية تسري داخلها، وانفعال قوي يتدفق منها، بقصد استنهاض همة الخليفة، وحثه على الأخذ بالنار، والانتقام من الأعداء، وإنقاذ المدن المحتلة، ولتحقيق هذا المقصد فقد وظف الشاعر التراكيب اللغوية التي تخدم الجو النفسي العام، مثل: استخدام الأفعال الطلبية مثل: "صل، طهر"، التي خرجت عن معناها اللغوي، لتوحي بدلالات جديدة، ومعان أخرى مثل: الرجاء والاستعطاف، فضلاً عن استعمال أسلوب النداء: (يا أيها المنصور)، وأسلوب التوكيد بالجملتين الاسمية والفعلية: (أنت لها، وقد توارت، إنهم نجس)، فالشعر في هذا النمط غالباً ما يتحول " وهذا يتطلب تغيير النبرة واشتداد اللهجة التي تحمل حرارة الانفعال والتأثير"².

وفي قصيدة مالك بن المرحل يشير إلى قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ اَنۢى يَكُوۡنُ لَهُۥٓ وَلَدٌۭ وَلَمۡ يَكُنۡ لَّهُۥٓ صٰلِحَةٌۭ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۭ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيۡمٌۭ﴾³، فالشاعر يصف أعداء الأندلس بالكفار

¹ سورة التوبة، آية 28.

² السعيد، محمد مجيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، ط2، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 1985، ص317.

³ سورة الأنعام، آية 101.

بالكفار الذين يدعون بأن الله تعالى له صاحبة وولد، ويدعون أن عيسى عليه السلام هو ابن الله، يقول الشاعر:

الرجز

مَا هُمُّهُ إِلَّا قِتَالُ أُمَّةٍ يَكْبُرُ عَيْسَى قَوْلَهُمْ وَمَرِيْمُ
تَشْرِكُ بِاللَّهِ وَتَدْعُو مَعَهُ خَلَقَا يَصِحُّ جِسْمُهُ وَيَسْقَمُ
وَتَدْعِي أَنَّ لَهُ صَاحِبَةً وَاِبْنَاً وَلَا صَاحِبَةً وَلَا ابْنَـم¹

ولأبي إسحاق الإلبيري اقتباس إشاري في رثاء مدينة البيرة التي خربت في الفتنه البربرية سنة (400هـ)، يقول:

الطويل

وَإِنْ قَدْ قَسَتْ أَكْبَادُكُمْ وَقَلُوبُكُمْ وَمَا فَيْكُمْ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ رَاغِبُ²
ففي البيت إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فُسِقُونَ﴾³.

وهكذا ظهرت آثار لغة القرآن الكريم في الشعر الأندلسي من خلال استدعاء الشعراء الأندلسيين لكثير من الألفاظ القرآنية وتضمينها في أشعارهم ليرصعوا بها لغتهم الشعرية، مستفيدين من جمالها اللغوي ومن طاقتها التعبيرية، وشحناتها الإيحائية.

فكانوا يتناولون هذه الألفاظ بنصها حيناً، وأحياناً يحورون فيها تحويراً يسيراً لا يبعدها عن أصلها الكريم، ومنبعها الطاهر الشريف كتاب الله، هذا من جانب، ومن جانب آخر رأينا كيف أن الألفاظ كانت منبعاً ورافداً من الروافد اللغوية يستقي منها الشعراء الأندلسيون ما يطلو لهم من جواهر الألفاظ القرآنية، الأمر الذي كان يعكس إعجابهم واهتمامهم بلغة القرآن، وحفظهم إياه حفظاً يملأ أذهانهم ومخيلاتهم، فيجري ذلك على ألسنتهم ويتعكس في إبداعهم الشعري.

¹ الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص 98-100.

² الإلبيري، أبو إسحاق: الديوان، ص 76.

³ سورة الحديد، آية 16.

ومن الألفاظ التي تأثر بها شعراء رثاء المدن الأندلسية لفظة الجنة في حديثهم، عن الأندلس فهم يشبهون الأندلس بالجنة ولا يوجد كلمة تحمل من الجمال والمعاني لوصف الوطن أكثر من هذه اللفظة، كما أنها تقع في نفس المسلم، وتؤثر في مسمعه، ومخيلته مجرد سماع لفظ الجنة.

وما جرى للأندلس من نكبات، أثر في نفسية الشعراء إلى حد كبير، ودفع ذلك الشعراء إلى تشبيهها بالجنة، بالمسميات التي وردت بالقرآن الكريم، منها (الجنة، جنة عدن - جنة الخلد - الفردوس)، فابن شهيد يرى أن الجنة هي قرطبة، فقد كان شاهداً عليها عندما طلت عليهم الفتنة برأسها، واستباحها الأعداء، فهو يراها جنة على الأرض، لكن هلكت وهلك أهلها:

الكامل

يَا جَنَّةً عَصَفَتْ بِهَا وَيَأْهْلِهَا رِيحُ النَّوَى فَتَدْمَرْتُ وَتَدَمَّرُوا 1

وأبو المطرف يعلن صراحة أن الأندلس هي جنة ويشبهها بالجنة الحقيقية التي تجري من تحتها الأنهار كما وصفها الله تعالى فاقنبس وصف الجنة من قوله تعالى : ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ 2﴾، يقول الشاعر:

الكامل

مَا كَانَ ذَاكَ الْمِصْرُ إِلَّا جَنَّةً لِلْحُسْنِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ أَنْهَارُهُ 3

فاللفظ القرآني واضح في البيت، أظهر قدرة الشاعر وبراعته في إدخال النص القرآني في النص الشعري، وأظهر هذا ثقافة الشاعر الإسلامية، وعاطفته الدينية والوطنية تجاه الأندلس.

وفي مقصورة حازم القرطاجني يرد ذكر الجنة، ونهر الكوثر يقول:

¹ الأندلسي، ابن شهيد: الديوان، جمع يعقوب زكي، الكتاب العربي للطباعة والنشر، ص 109.

² سورة آل عمران، آية 195.

³ المقرئ، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص 493.

الكامل

إلى زُقاقِ الجنّةِ الأعلى الذي بِشَاطِئِ الكُوثرِ مِنْ بَابِ المنى 1
وفي موضع آخر من هذه المقصورة وحين استنجد القرطاجني بالأمير الحفصي في تونس،
استخدم الشاعر لفظة جنة الخلد بدلاً من الجنة، فالأندلس عنده جنة الخلد التي تُعجب كل من أقام
بها، وهذه الجنة فيها نهر الكوثر، يظهر في البيت تعلق الشاعر بعقيدته التي تستنطق في شعره،
ويظهر من جهة أخرى حبه لوطنه لدرجة أنه يشبهه بجنة الخلد، كما تظهر براعة الشاعر في
استخدام التراكيب التي تؤثر في مشاعر القارئ؛ فهو باستخدامه لهذه الألفاظ يقول للمتقاعسين عن
نصرة الأندلس: إنكم فرطتم في بلد يشبه جنة الخلد، يقول:

الرجز

كَجَنَّةِ الخُلْدِ تَسُرُّ مَنْ رَأَى فَتَزْدِرِي الخُلْدَ وَسُرَّ مَنْ رَأَى
حَلَّ البرايا مِنْ ذُراكِ جَنَّةٍ بِكُوثرِ الإحسانِ فِيهَا يَزْتَوِي 2

والشاعر أبو المطرف بن عمير يستخدم لفظة (جنة الخلد) في رثاء بلنسية، فيقول:

الطويل

وَهَلْ أذُنَبَ الأَبْناءُ ذَنْبَ أَبِيهِمْ فَصَارُوا إِلَى الإِخْراجِ مِنْ جَنَّةِ الخُلْدِ؟ 3
فالشاعر يقارب بين ذنوب المسلمين الكبيرة في الأندلس (فساد وظلم وغيرها)، وذنوب آدم عليه
السلام حين أقبل على الشجرة المحرمة، والأندلس لدى الشاعر هي الفردوس المفقود.
وابن شهيد يرى أن قرطبة قد سقيت بماء دجلة والفرات وكذلك بماء الكوثر نهر الجنة الذي
يشرب منه الرسول صل الله عليه وسلم ويقول:

¹ الخوجة، محمد الحبيب: قصائد ومقطعات (صنعة ابن الحسن حازم القرطاجني)، الدار التونسية للنشر: تونس، 1972م،
ص71_17.

² الخوجة، محمد الحبيب: قصائد ومقطعات (صنعة ابن الحسن حازم القرطاجني)، ص71_17.

³ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص493.

الكامل

جَادَ الْفَرَاتُ بِسَاحَتَيْكَ وَدَجَلَةَ وَالنَّيْلُ جَادَ بِهَا وَجَادَ الْكَوْثَرُ¹
واستخدم ابن سهل نهر الكوثر في قصيدته التي رثى فيها مدينة إشبيلية عندما اشتد الحصار
عليها سنة 645هـ، فالشاعر يحث على الجهاد، ويبشر المجاهدين أن جزاءهم نهر الكوثر في
الجنة، يقول:

الكامل

وَتَجَشَّمُوا الْبَحْرَ الْأَجَاجَ فَإِنَّهُ سَبَبٌ بِهِ تَرِدُونَ نَهْرَ الْكَوْثَرِ²
والشاعر مالك بن المرحل يذكر لفظتي الجنة وجهنم في بيت واحد، يقول:

الرجز

لَهْفًا عَلَى أُنْدُلُسٍ مِنْ جَنَّةٍ دَارَتْ بِهَا مِنَ الْعِدَا جَهَنَّمُ³
فالأندلس هي الجنة عند الشاعر، وأما العدو والحرب والدمار الذي حلّ بالأندلس فهو جهنم،
تظهر في البيت العاطفة الدينية من خلال استعمال الألفاظ، وقدرة الشاعر على إدخالها في النص
الشعري لتخدم المعنى وتبرزه وتشعرنا بالتعاطف مع الأندلس لما حل بها.
فالشاعر يشير إلى المعنى الإسلامي في جزاء المجاهدين في سبيل الله، فجزاء من يجاهد في
الدفاع عن الأندلس هو نهر الكوثر، وهو النهر الموجود في الجنة، فيذكر النهر ويريد بذلك الجنة.
ومن مظاهر تأثر الشعراء بالإسلام في أشعارهم استخدام أسماء الله الحسنى في الأشعار ومن
ذلك أبيات في رثاء طليطلة لشاعر مجهول، يقول فيها:

الوافر

أَلَمْ تَكْ مَعْقِلًا لِلدِّينِ صَعْبًا فَذَلَّهِ كَمَا شَاءَ الْقَدِيرُ¹

¹ الأندلسي، ابن شهيد: الديوان، ص 109.

² الفاسي، علي بن أبي ذرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص 69، وكذلك ابن سهل: الديوان، تحقيق بطرس البستاني، ص 162-163.

³ الفاسي، علي بن أبي ذرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص 98-100.

لقد غلب على أبيات القصيدة اليأس والتشاؤم لما حلّ بالأندلس؛ ولكن الشاعر ختمها بدعاء يطلب فيه النصر من الله، متأثراً بالأسلوب القرآني في أواخر الآيات، فاستخدم اسم الله النصير ليتلاءم مع الموقف الذي يتحدث عنه، فهو يرجو النصر من الله ، يقول تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾² وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾³ ويقول الشاعر:

الوافر

وَنَزَجُو أَنْ يُبِيحَ اللَّهُ نَصْرًا عَلَيْنَهُمْ إِنَّهُ نِعْمَ النَّصِيرُ
كما استخدم الشعراء أسماء يوم القيامة، ومن ذلك النشور في قصيدة رثى فيها طليطلة في قول شاعر مجهول:

الوافر

مَسَاجِدُهَا كِنَائِسُ، أَيُّ قَلْبٍ عَلَىٰ هَذَا يَقَرُّ وَلَا يَطِيرُ
وَيَنْشُرُ كُلَّ حُسْنٍ لَيْسَ يَطْوِي إِلَىٰ يَوْمٍ يَكُونُ بِهِ النَّشُورُ⁵
وابن سهل يستخدم كلمة المحشر للدلالة على يوم القيامة، فمن أراد أن يفوز في ذلك اليوم فعليه أن يجاهد في سبيل الله، يقول:

الكامل

ورداً فَمَضْمُونٌ نَجَاحُ الْمَصْدَرِ هِيَ عِزَّةُ الدُّنْيَا، وَقَوْرُ الْمَحْشَرِ⁶
ويستخدم الشاعر في موضع آخر من القصيدة نفسها اسماً من أسماء جهنم، (السعير) التي يراها مكاناً وجزءاً للذين تهون عليهم مصائب الدين، وما حلّ بالإسلام في الأندلس يقول:

¹ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص483.
² سورة الانفال، آية40.
³ سورة الحج، آية 78.
⁴ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج4، ص483.
⁵ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 4، ص 483.
⁶ الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص 162-163، وكذلك الإسرائيلي، ابن سهل: الديوان تحقيق بطرس البستاني، ص 162-163.

الوافر

تَجَادَبْنَا الْأَعَادِي بِاصْطِنَاعٍ فَيُنْجِزُ الْمُخَوَّلُ، وَالْفَقِيرُ
وَأَخْرُ مَارِقٌ هَانَتْ عَلَيْهِ مَصَائِبُ دِينِهِ، فَلَهُ السَّعِيرُ 1

من هنا نرى حرص الشعراء وعنايتهم باستخدام الألفاظ الإسلامية، وأثر هذه الألفاظ على المعنى، فقد زاد اللفظ الإسلامي النص الشعري جمالاً، وجعل المعنى أكثر إichاء.

التأثر بالمعنى القرآني

لم يقتصر تأثر شعراء رثاء المدن الأندلسية بالقرآن الكريم عند حد استعارة الألفاظ والتراكيب القرآنية، بل تمثل الشعراء المعاني القرآنية من حث على الجهاد، وتسليم واستسلام وإيمان بالقضاء والقدر ودعوة للصبر، وضرورة التحلي بالأخلاق الحميدة، والبعد عن المعاصي والذنوب التي كانت سبباً في ضياع الأندلس.

أولاً: الدعوة للجهاد

إن الظروف السياسية التي سادت الأندلس، كانت مزيجاً من الصراعات الداخلية بين الملوك والحكام، كما كانت هدفاً لأطماع خارجية من الإسبان الذين رسموا مخططاً من أجل التفرد بالمدن والممالك الأندلسية، وتم لهم ما أرادوا، وكانت سياستهم تقضي إسقاط هذه المدن الواحدة تلو الأخرى. إن قوة العدو وتفوقه وانشغال الأندلسيين باللهو والترف، والتصاق الحكام والملوك بعروشهم، مكنت العدو من اغتنام الفرصة لتنفيذ ما يطمح إليه وما يخطط له؛ فبدأ باقتطاع الأجزاء القريبة إليه فهي أول ما يلقي المصير خلال تقدمه.

وكانت نتيجة هذا السقوط تشتت المسلمين وتفرقهم، ومن الطبيعي أن يواكب الشعراء هذه الظروف، وأن يعبروا عنها في أشعارهم التي حاولوا من خلالها أن يظهروا حجم المأساة التي

¹ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص483.

أصابته البلاد، ووجهوا الدعوات والصرخات المتلاحقة لإخوانهم؛ لكي يقفوا إلى جانبهم، من أجل صد هذه الهجمة، وأن ينهضوا لنصرتهم.

وشعر رثاء المدن الأندلسية زاحر بالأبيات التي تحض على الجهاد، وتبين مكانته، وجزاء الشهداء عند الله تعالى، بالإضافة إلى قوة الأشعار التي تطلب النجدة فتصف هذه الأشعار المأساة التي تحدث لتثير المشاعر، ثم تحت على الجهاد، وتطلب النصر.

وكان من الشعراء الذين بينوا أهمية الجهاد وذكروا مكانته في الإسلام، الشاعر أبو عمر بن المرابط في القصيدة التي كتبها في استنجد ابن الأحمر يعقوب المريني، فالشاعر خاطب الواع الديني عنده، ويذكره بفضل الجهاد في الإسلام، لاستنهاض عزمته لنصرة الأندلس، يقول الشاعر:

الكامل

هذا الجهادُ رَيْسُ أَعْمَالِ التَّقَى خُذْ مِنْهُ زَادَكَ لَارْتِحَالِكَ تَسْعِدِ
هذا الرِّبَاطُ بِأَرْضِ أَنْدَلَسٍ فَرِح مِنْهُ لِمَا يُرِضِي إِلَهَكَ وَاعْتَدِ
سَوَّدَتْ وَجْهَكَ بِالْمَعَاصِي فَالْتَمَسْ وَجْهًا لِلْفَيْءِ اللَّهُ غَيْرَ مُسَوِّدِ¹

فرسمت أشعار رثاء المدن الأندلسية صورة للإنسان الأندلسي المستغيث المستنجد بإخوانه المسلمين، واستنهاض همهم واستتصارهم، وشد عزائمهم، كي يهبوا إلى نجدتها والدفاع عنها.

ويستثير الشعراء حمية المسلمين للدين الحنيف، وإنه لحري أن يغلي لذلك دم كل مسلم، وأن يمتشق الحسام للثأر، والفتك بأعداء الإسلام، لذا زحرت أشعار رثاء المدن بالدعوة إلى الجهاد والثأر للدين، وكانت هذه الدعوة ذات مضامين دينية. فقد تمثل بعض الشعراء الآية القرآنية: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾²، في رثائه مدن الأندلس، مذكراً بفضل الجهاد وهذه التجارة الرباحة مع الله تعالى، ليبث في النفوس القوة والعزم للدفاع عن الأندلس، يقول ابن سهل في رثائه مدينة إشبيلية عندما اشتد الحصار عليها سنة 645هـ:

الكامل

¹ راجع هذه القصيدة: ابن خلدون: العبر، ج7، ص409-414؛ أرسلان، شقيب: خلاصة تاريخ الأندلس، ص81-83.

² سورة التوبة، آية 111.

إِنَّ إِلَٰهَهُ قَدْ اشْتَرَىٰ أَرْوَاحَكُمْ بِيَعُوا وَيُهْتَنِكُمْ وَقَاءَ الْمُشْتَرَىٰ
أَنْتُمْ أَحَقُّ بِنَصْرِ دِينِ نَبِيِّكُمْ وَلَكُمْ تَمَهَّدَ فِي قَدِيمِ الْأَعْصُرِ 1

فالتناص القرآني في الأبيات واضح، فتناص الشاعر جاء مع الآية الكريمة بتغيير طفيف، فالشاعر يربط الدعوة للجهاد بدعوة القرآن الكريم له، إن هذا الربط أو هذا التناص يجعل هذه الدعوة مقدسة لأنها دعوة من الله تعالى.

لقد كانت هذه الأبيات ضمن الرسالة التي بعثها أهل إشبيلية، وكتبها شاعرها ابن سهل للدعوة المغربية؛ لحنهم على نصرته إخوانهم، وقد كان للرسالة أثر بالغ فجاءت المعونة إلى أهل إشبيلية، وصمدوا ثمانية عشر شهراً، وقد كان عزمهم على مواصلة المقاومة لا مفر منه، ولكن عزم محاربتهم كان أشد، فقشتالة أرسلت رهبانها وأخبارها في أصقاع أوروبا يحشدون للحرب المقدسة، وأصبح جلياً أن قشتالة لن ترحل دون دخول المدينة، التي أعيا أهلها التعب والجوع والمرض، ولم تغن بسالتهم شيئاً أمام إصرار النصارى على دخول المدينة، فاضطر الإشبيليون إلى قبول مصيرهم المحتوم، وارتضوا تسليم المدينة، على أن يؤمن المسلمون على أنفسهم وأموالهم، فمنحهم ملك قشتالة شهراً للإخلاء في أمان، وأعطى الإذن بالترتيبات لنقلهم حيثما شاءوا².

وقد نجد في معاملة (فرناندو) الثالث لأهل إشبيلية من أمان ما لم يمنحه لقرطبة أو أية مدينة أخرى، فصمود أهل إشبيلية أجبره على احترامهم ومنحهم الأمان للخروج ليدخلها يوم 23 ديسمبر سنة 1248 م أوائل رمضان من العام 646 هـ، وهو يركب فرسا عظيمة، وخلفه موكب ضخم، وما أن وصل إلى وسط المدينة حتى أمر بتحويل مسجد الجامع إلى كنيسة كعادتهم.

وكان الشعر يدعو إلى الجهاد، ويرغب فيه، ذاكراً ما أعد الله للمجاهدين من أجر عظيم، فكان مثيراً للحفائظ بأحسن ما تستثار به من حماية الدين وتدعيم أركانه، ففي قصيدة (مالك بن المرحل) يظهر ارتباط الشاعر الأندلسي بالقرآن الكريم في تمثيله للآيات القرآنية في شعر رثاء المدن

¹ الفاسي، علي بن أبي ذرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص69، وكذلك ابن سهل: الديوان، ص 162-163.

² الفاسي، علي بن أبي ذرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص69.

الأندلسية، فالله تعالى يقول في جزاء المجاهدين في سبيله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْلَتُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾¹ يقول الشاعر:

الرجز

بَاعُوا مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ أَنْفُسًا كَرِيمَةً فَفَاضَ مِنْهَا الْحَكَمَ
دَعَاهُمْ اللَّهُ إِلَى رَحْمَتِهِ فَاجْتَمَعُوا بِبَابِهِ وَازْدَحَمُوا²

ويذكر الشاعر مالك بن المرحل بجزاء الجهاد والموت في سبيل الله، عن طريق استخدام الاستفهام الذي يخرج عن معناه الحقيقي ليؤدي معنى آخر استنكارياً، فهو ينكر ويتساءل كيف يخاف الإنسان من الجهاد، وهو يعلم بأن الله أعد له الجنان والحدود العيون، جزاء له، يقول:

الرجز

إِخْوَانَنَا مَاذَا الْفُعُودُ بَعْدَهُمْ أَفِي ضَمَانِ اللَّهِ مَا يُتَّهَمُ؟
هَلْ هِيَ إِلَّا جَنَّةٌ مَضْمُونَةٌ أَوْ عَوْدَةٌ صَاحِبِهَا مُكْرَمٌ؟³
ثم يدعو إلى حمل السلاح، والجهاد، مشيراً إلى الآية القرآنية: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾⁴، والآية القرآنية: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾⁵، يقول يقول مالك بن المرحل:

الرجز

حُدُّوا السَّلَاحَ، وَأَنْفِرُوا، وَسَارِعُوا إِلَى الَّذِي مِنْ رَبِّكُمْ وَعِدْتُمْ⁶

¹ سورة التوبة، آية 111 .

² الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص 98-100.

³ الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص 98-100.

⁴ سورة آل عمران، آية 133.

⁵ سورة التوبة، آية 41.

⁶ الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص 98-100.

وهكذا تستمر الرسالة في إلهاب حماسة المغاربة واستثارة نخوتهم، في نفس طويل تتخلله استشهادات بآيات قرآنية كريمة، وأحاديث نبوية شريفة، لتوجه- بعدها - الخطاب للنخبة المغربية.

فالشاعر في قصيدته التي يستنجد فيها بالمجاهدين للأندلس، ويستتفرهم للجهاد، يشير إلى أن الشهادة في سبيل الله والدفاع عن الإسلام هي تجارة يبيع فيها الإنسان روحه لخالقه، فينال الربح ويحصل على النعيم الدائم، ولا شك أن داعي الوطنية أيضا كان يُنطق ابن المرحل، إنه الوطن الذي فتح عينيه فيه وعاش في ربوعه صباحا بصحبة أهله؛ فالشاعر يثير الحمية الدينية أو القومية في نفوس أهلها وأشقاؤها للجهاد في سبيل إعادة الحق المسلوب.

إن استخدام الشاعر المعنى الإسلامي في الحث على الجهاد جاء ليدفع المتلقي إلى سرعة الاستجابة لهذه الدعوة.

كانت أشعار رثاء المدن الأندلسية تتضمن دعوة للجهاد والنصرة، من أجل تخلص البلاد مما حل بها من مكر وغدر وبلاء، فقد دعا أحد الشعراء في رثاء مدينة طليطلة إلى الجهاد والأخذ بثأر الديانة، ونصرة الدين، فلكثرة القتل أصبحت النسور تحوم فوق الجثث فلا نجد من يوارى الأجساد يقول:

الوافر

خُدُوا ثَأْرَ الدِّيَانَةِ، وَأَنْصُرُونَا،
فَمَوْتُوا كُلُّكُمْ فَالْمَوْتُ أَوْلَى،
فَقَدْ حَامَتْ عَلَى الْقَتْلَى النُّسُورُ
بِكُمْ مِنْ أَنْ تُجَارُوا، أَوْ تَجُورُوا 1

وكذلك قصيدة ابن الأبار في رثاء بلنسية والاستجداء بصاحب إفريقية، تدعو إلى الجهاد، وتحت عليه المسلمين، فيستخدم الألفاظ التي تشعر المتلقي بأن القتال ديني من أجل العقيدة، فيصف المسلمين بمعشر التوحيد والمؤمنين، ويصف الصليبيين بأهل الشرك، وهو بذلك يؤكد أن الصراع صراع عقائدي، كما كان الصراع بين المسلمين والكفار زمن الرسول عليه السلام، يقول:

¹ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج4، ص483.

الكامل

هُبُوا لَهَا يَا مَعْشَرَ التَّوْحِيدِ قَدْ
أُولُوا الْجَزِيرَةَ نُصْرَةً إِنَّ الْعَدَى
تُقَصِّتُ بِأَهْلِ الشَّرْكَ مِنْ أَطْرَافِهَا
فَاسْتَحْفِظُوا بِالْمُؤْمِنِينَ بَقَاءَهَا¹
وَابْنُ سَهْلٍ يَحْتَضِرُ عَلَى الْجِهَادِ، وَيُنَادِي بِجَمْعِ الْمُسْلِمِينَ، لِتَلْبِيَةِ نِدَاءِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،
يَقُولُ:

الكامل

نَادَى الْجِهَادُ بِكُمْ بِنَصْرِ مِضْمَرٍ
يَبْدُو لَكُمْ بَيْنَ الْقَنَا، وَالضُّمَرِ²
وَكَانَ مَالِكُ بْنُ الْمَرْحَلِ يَرْفَعُ عَقْبِرَتَهُ وَيَسْتَنْهَضُ هَمَّ النَّاسِ وَمُلُوكَ بَنِي مَرِينٍ لِلْجَوَازِ إِلَى
الْأَنْدَلُسِ بِرِسْمِ الْجِهَادِ، وَنَصْرَةِ دِينِ اللَّهِ. وَلَعَلَّ (مِيمِيَّتَهُ) أَشْهَرُ مَا قَالَهُ فِي هَذَا الْبَابِ، خَاصَّةً وَأَنَّهَا
تَلْبِيَةٌ عَلَى الْمَنَابِرِ فِي الْمَسَاجِدِ، فَكَسَبَتْ تَأْيِيدًا شَعْبِيًّا عَرِيضًا حَتَّى تَسَارِعَ النَّاسُ إِلَى شَدِّ الرَّحَالِ
وَالِاتِّحَاقِ بِالْجَيْشِ النَّظَامِيِّ الْمَرِينِيِّ بِقِيَادَةِ أَبِي مَالِكِ بْنِ يَعْقُوبِ الْمَرِينِيِّ، وَهِيَ تَتَأَهَّبُ لِلْعُبُورِ إِلَى
الْأَنْدَلُسِ، يَقُولُ مَالِكُ بْنُ الْمَرْحَلِ:

الرجز

اسْتَنْصَرَ الدِّينُ بِكُمْ فَأَقْدِمُوا
وَأَسْرَجُوا لِنَصْرِهِ وَأَلْجُمُوا
لَا تُسَلِّمُوا الْإِسْلَامَ يَا إِخْوَانَنَا
فَأِنَّهُ إِنْ تُسَلِّمُوهُ يُسَلِّمُ³
هَكَذَا كَانَتْ أَشْعَارُ رِثَاءِ الْمَدِينِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ، تَحْضُرُ عَلَى الْجِهَادِ وَتَذَكُرُ بِجَزَاءِ الْمَجَاهِدِينَ، وَكَانَتْ
بِذَلِكَ تَتَنَقَّلُ بِالْأَسْلُوبِ الْإِسْلَامِيِّ.

¹ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج6، ص 200-204، ؛ ج4، ص 457-460.

² الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص69؛ الإسرائيلي، ابن سهل: الديوان، ص 162-163.

³ الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص98-100.

ثانياً: الإيمان بالقضاء والقدر

في ظل الأحداث التي مرت بها الأندلس يطالعنا رثاء المدن إلى مقدار الفاجعة والنكبات التي حدثت، ويظهر محاولات أهل الأندلس لإنقاذ المدن، ولكن لم تنجح هذه المحاولات، يقول أبو البقاء الرندي مقراً بحقيقة القضاء والقدر، مؤمناً أن لا بقاء في الحياة الدنيا لأحد، فجميع المخلوقات مصيرها الزوال، كما لا تدوم هذه الدار لأحد؛ فالدهر منقلب بين الرخاء والشدة بين النعيم والمحن:

البيسط

وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تَبْقَى عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَأْنٌ¹

ويقول بعد ذكر قصص السابقين، والأقوام التي أبادها الله تعالى، وكأنهم لم يوجدوا يوماً على هذه الحياة:

البيسط

أَتَى عَلَى الكُلِّ أَمْرٌ لَا مَرَدَّ لَهُ حَتَّى قَضَوْا، فَكَأَنَّ القَوْمَ مَا كَانُوا²

ومن الشعراء الذين ظهر في مراثيهم الإيمان بالقضاء والقدر أبو إسحاق الإلبيري فإنه يؤمن بأن كل شيء مصيره إلى زوال إلا الله سبحانه وتعالى فهذه المدينة خالية مدمرة بعد أن كانت تعج بالناس فيتعجب الشاعر لحالها فتجيب بقايا المدينة أن كل شيء يزول إلا الله. يقول:

الطويل

فَلِلَّهِ ثَاوِيهِمْ وَلِلَّهِ حَايُهُمْ فَكُلُّ جَوَادٍ بَاهِرُ الفَضْلِ وَاهِبِ

سَأَلْتُ عَنْهُمْ رَسْمَهَا فَأَجَابَنِي أَلَّا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ دَاهِبِ³

لقد استنطق الشاعر الجماد ليرسم صورة حية لمعاناة الأندلس، ضمن نبذة إسلامية تجلت واضحة في شعر رثاء المدن الأندلسية.

¹ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص487.

² المرجع السابق.

³ الإلبيري، أبو إسحاق: الديوان، ص76.

ويستخدم أبو موسى هارون بن هارون في رثاء إشبيلية، المعنى القرآني أن الأمور هي قضاء
وقدر من الله سبحانه وتعالى فيقول:

البسيط

إِنَّا إِلَى اللَّهِ قَدْ حَلَّ الْمَصَابُ، وَمَا مِنْ حِيَلَةٍ مِنَ الَّذِي أَمْضَى، وَمَا حَتْمًا 1
كما يضمن أبو العباس الدقون في رثاء مدينة غرناطة قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَاهَا
بَيْنَ النَّاسِ﴾²، فالتأثر عند الشاعر مع الآية الكريمة جاء في الشطر الثاني في قوله:
فَلَنُكْرِمَ الْآنَ مَنْ يَنْزِلُ بِمَنْزِلِنَا قَالَدَّهُرُ ذُو دَوْلٍ فَاسْمَعِ لَأَمْتًا³
وتكرر المعنى الإسلامي، والركن السادس من أركان الإيمان وهو الإيمان بالقدر خيره وشره،
في شعر أبي موسى عندما تحدث عن ما حل في إشبيلية فرده إلى قضاء الله وقدره، ودعا إلى
الرضى بما قسم الله تعالى يقول:

البسيط

يَا نَفْسُ لَا تَذْهَبِي لِلْحَادِثَاتِ أَسَى وَجَامِلِي الصَّبْرِ، وَارْضِي بِالَّذِي قُسِمَا 4
ويعد رثاء أبي البقاء الرندي للأندلس كنزاً من كنوز شعر رثاء المدن، حيث سجّل شعره ما
حدث في الأندلس من قتل ودمار وسبي وتتكيل، يصف حال أمة بأكملها، ويصف ما حدث للدين
الإسلامي، وأبيات القصيدة تزخر بالنفحة الإسلامية التي تدل على ارتباط شعراء الأندلس بالإسلام،
وتدل على عمق الثقافة الإسلامية عند الشعراء؛ فهو يبدأ الأبيات بالرضا لأمر الله تعالى،
ولحكمته، فلا يوجد كمال في الحياة الدنيا إنما هو الله وحده، وعلى الإنسان أن لا يغتر بطيب
العيش فتلهيه الحياة الدنيا عن العبادة، وهو يشير إلى حالة اللهو والعبث الذي وصل إليه المسلمون
في الأندلس بعد فترة الاستقرار والنعيم التي عاشها، ويرى أن حال الزمان لا يستقر على حال،
فيقول الرندي:

¹ المراكشي، ابن عذاري: البيان المغرب، ج 3، ص 382.

² سورة آل عمران، آية ١٤٠.

³ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: أزهار الرياض، ج 1، ص 104.

⁴ المرجع السابق، ج 3، ص 382.

البيسط

كُلُّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُفْصَانُ فَلَا يُعْرُ لِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُهَا دُولُ مَنْ سَرَهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَرْمَانُ¹

ونظر بعضهم إلى رد الشعراء مصيبة الأندلس للقضاء والقدر نظرة استكانة وضعف فالأسباب الحقيقية من تخاذل الحكام وغيرها واضحة جلية، والاعتماد على القضاء والقدر فيه استكانة وضعف من الشعراء، فالتعلل بالقضاء والقدر " تفسير خاطئ لأسباب الهزيمة، ونظرة نددت عن الصواب في فهم عقيدة القدر، فما تمكن الأعداء من إحكام قبضتهم على المدينة إلا بسبب تخاذل أصحابها، ونسيانهم أسس الاستخلاف في الدنيا والتمكين في الأرض، فلماذا التعلل بالقدر؟ والدعوة إلى الرضا بالمشيئة الإلهية النافذة، بدلا من مواجهة الواقع بصدق، وتضافر الجهود للتصدي للأسباب المؤدية إلى الهزيمة؛ أملا في الخلاص وحفاظا على ما بقي من أرض وعرض"²

ثالثا: الدعوة إلى الصبر

يتحلى ابن شهيد بالروح الايمانية بعد كل المصائب من قتل، وترويع، ويعلن أنه سيصبر على المحن والعسر، امثالاً لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۗ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۗ﴾³، وهذا الصبر هو الصبر الجميل الذي جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ۗ﴾⁴ يقول ابن حزم:

الطويل

سَنَصْبِرُ بَعْدَ الْعُسْرِ لِلْيُسْرِ طَاعَةً لَعَلَّ جَمِيلَ الصَّبْرِ يُعْقِبُنَا يُسْرًا،⁵

والشاعر أبو موسى هارون بن هارون يدعو لى الصبر على قضاء الله وقدره والرضى بما قسم الله تعالى يقول:

¹ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص487.

² الجوهري، محمد رمضان أحمد: التعلل بالقدر وأثره في نكبتها، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة (جامعة الأزهر): مصر، 2011م، العدد 30، ج1، ص449-450.

³ سورة الشرح، آية 5-6.

⁴ سورة يوسف، آية 18.

⁵ التلمساني، لسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص107-108.

البيسط

يا نَفْسُ لَا تَذْهَبِي لِلْحَادِثَاتِ أَسَى وَجَامِلِي الصَّبْرِ، وَارْضِي بِالَّذِي تُسِمَا¹
واستوحى ابن حزم في رثاء قرطبة التعبير القرآني (صبر جميل) من قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ
سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾² على لسان نبي الله يعقوب
- عليه السلام - رغم فقدته ليوسف وهو أحبُّ أبنائه إليه، إلا أنه استعان بالله، وضبط نفسه
وحملها على الصبر الجميل، الذي لا شكوى معه ولا جزع، ولما اشتدَّ به المصاب بفقد ابنه الثاني،
لم يفقد صوابه، ولم يغب رشده، وظل مستمسكاً بصبره الجميل، فالشاعر بهذا اللفظ القرآني يقول
للقارئ إن الأندلس هي أحب البلاد وأفضلها ولكن لا بد أن نصبر كما صبر سيدنا يعقوب على
مصابه، لقد خدم هذا التناص النص فأصبح أكثر تعبيراً عن مشاعر الشاعر وأكثر مصداقية؛
وذلك لقداسة النص المأخوذ منه.

رابعاً: الأخلاق والبعد عن المعاصي والذنوب

بيّن الشعراء الذين رثوا مدن الأندلس الأسباب التي أدت إلى هذه الخسائر، فما كان ليخفي أن
ما وصل إليه الناس في الأندلس من لهو وفسق كان من أسباب سقوط الأندلس، فهذا ابن العسال
يرثي مدينة بريشتر ويرى أن ذنوب المسلمين والكبائر التي كانوا يرتكبونها هي التي أدت بهم إلى
هذه الحال؛ فالذنوب هي الداء برأيه، يقول:

الكامل

لَوْلَا ذُنُوبُ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْهَمُ
رَكَبُوا الْكِبَائِرَ مَا لَهُنَّ خَفَاءُ
مَا كَانَ يُنْصَرُ لِلنَّصَارَى فَارِسُ
أَبَدًا عَلَيْهِمُ فَالذُّنُوبُ الدَّاءُ
فَشِرَارُهُمْ لَا يَخْتَفُونَ بِشَرِّهِمْ
وصلاح مُنْتَحِلِي الصَّلَاحِ رِيَاءُ³

¹ المراكشي، ابن عذارى، البيان المغرب، ج3، ص 382.

² سورة يوسف، آية 18.

³ الحميري: محمد بن عبد المنعم، صفة جزيرة الأندلس (مقتطفة من الروض المعطار)، ص40-41 وكذلك أرسلان، شكيب: الحلل السندسية، ج3، ص541.

ويؤكد ما ذهب إليه ابن العسال من رد أسباب سقوط الأندلس إلى الذنوب شاعر رثا مدينة طليطلة، لم يذكر اسمه إذ يرى أن الفسق والفجور الموجود في الأندلس هي السبب بما حل بهذه البلاد الجميلة وهي السبب في عدم القدرة على الرد على الأعداء والانتقام منهم يقول:

الوافر

أَنَامِلُ أَنْ يَحِلَّ بِنَا إِنْتِقَامٌ وَفِينَا الْفِسْقُ أَجْمَعُ وَالْفُجُورُ
وَأَكَلٌ لِلْحَرَامِ، وَلَا إِضْطِرَارٌ إِلَيْهِ، فَيَسْهَلُ الْأَمْرُ الْعَسِيرُ 1

وتظهر في هذه الأبيات العاطفة الدينية جلية، فرد الشاعر كل ما يحدث للمسلمين في الأندلس بسبب الذنوب والمعاصي وهي تتبئنا عن حب الشاعر لعقيدته، وحميته عليها، كما تظهر ثقافته الدينية الإسلامية.

كان الفسق والفجور والخمر منتشراً لدرجة أبعد أهل الأندلس عن حمايتها، وهذا كان السبب الذي يراه الشعراء وراء سقوط الأندلس، ووصولها إلى الحال التي وصلت إليها بيد الكفار، فكانت الأندلس عند أبي موسى هارون بن هارون وبالأخص في رثائه مدينة إشبيلية، جنة سكنوها وعاشوا فيها، بنعيم إلى أن تناقلت الذنوب، فكان جزاء ذلك أن أخرجهم الله من هذه الجنة عقاباً لهم على ذنوبهم، كما أخرج الله تعالى آدم عليه السلام من الجنة بسبب ذنوبه، حيث يقول:

البيسط

يَا جِنَّةً زَحْرَحْتُنَا عَنْ زَخَارِفِهَا ذُنُوبَنَا فَلَزِمْنَا الْبَيْتَ وَالنَّدْمَا
يَا سَائِلِي عَنْ مُصَابِ الْمُسْلِمِينَ بِهَا اصْخِ لِتَسْمَعَ أَمْرًا يُورِثُ الصَّمْمَا
لَمَّا تَفَرَّقَتِ الْأَهْوَاءُ، وَاضْطَرَمَّتْ نَارُ الْبُعَاةِ فَقَامَتْ لِلرَّدَى عِلْمَا 2

ووجهة النظر هذه نراها عند غير شاعر، إذ عدَّ ما حلَّ بهذه البلاد عقاباً سماوياً لأناس ضعفت عقيدتهم، وانحرفوا عن المنهج، وأسرفوا على أنفسهم في حياة الترف واللهو، وقد فشت في

¹ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص483.

² المراكشي، ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص382.

حياتهم المعاصي والموبقات، وعصوا أوامر الله وتهاونوا في أداء الواجبات الدينية، حيث يقول مالك بن المرحل:

الرجز

يَا رَبَّنَا مَا دَاؤُنَا شَيْءٌ سِوَى دُنُوبِنَا، فَارْحَمْنَا فَأَنْتَ تَرْحَمُ¹
ويؤكد الشاعر عمر بن المرابط أن ما حل بالأندلس كان نتيجة للمعاصي التي كانت ترتكب، لدرجة أن هذه المعاصي سودت الوجوه، ويشير هنا إلى المعنى القرآني في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾² يقول عمر بن المرابط:

الكامل

سَوَّدَتْ وَجْهَكَ بِالْمَعَاصِي فَالْتَمِسْ وَجْهًا لِلْفَيْأِ اللهُ غَيْرَ مُسَوِّدٍ
وَأَمْحُ الْخَطَايَا بِالْذُّمُوعِ فَرْتَمَا مَحَتِ الدُّمُوعُ خَطِيئَةَ الْمُتَعَمِّدِ³

وكذلك الشاعر أبو المطرف بن عميرة في رثاء بلنسية، فإنه يرى ما ذهب إليه الشعراء، بكون الذنوب هي سبب سقوط الأندلس، فأبو المطرف يرى الذنوب سبب إخراجهم من الأندلس، يقول:

الطويل

وَهَلْ أذْنِبُ الْأَبْنَاءُ ذَنْبَ آبَائِهِمْ فَصَارُوا إِلَى الْإِخْرَاجِ مِنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ؟⁴
ويشير حازم القرطاجني في مقصورته التي رثى فيها الأندلس إلى أن شر الخلق من لا يتقي الله تعالى، فالإسلام لا يلتفت إلى الفوارق في اللون، والجنس، والنسب، فالناس كلهم لآدم خلق من تراب، وإنما يكون التفاضل في الإسلام بين الناس بالإيمان، والتقوى تكون بفعل ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه، وفي ذلك إشارة منه إلى أن التقوى وفعل الخيرات هي التي ستحمينا، وأن

¹ الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص 98-100.

² سورة آل عمران، آية 106.

³ راجع هذه القصيدة: ابن خلدون: العبر: ، ج7، ص 409-414؛ أرسلان، شكيب: خلاصة تاريخ الأندلس، ص 81-83.

⁴ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص 493.

سبب السقوط كان البعد عن الدين، فالبعيد عن الدين هو شر الخلق مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾¹، يقول:

الكامل

وَشَرُّ خَلْقِ اللَّهِ مَنْ لَا يَتَّقِي إِلَهَهُ، وَيَزْدَرِي أَهْلَ التَّقَى 2
لقد أظهر شعراء رثاء المدن تأثرهم بالقرآن الكريم لفظاً ومعنى، فأضفت على الشعر نفحة إسلامية، زادت من قوة العبارة، وجمال المعنى، فأثرت في القارئ.

التأثر بالقصة القرآنية

لقد تحدى القرآن الكريم العرب في فنون القول، وهم فرسان الشعر، وأصحاب الفصاحة، وتحداهم أيضاً في القصص؛ ذلك أن تراثهم النثري قبل الإسلام مليء بالقصص والحكايات والأساطير والأخبار، والأيام التي تعرض لحياتهم، وتصور العظة والعبرة فيها، ومن ثم لم يكن عجباً أن يحوي القرآن الكريم ألواناً من النماذج القصصية الرائعة، التي جسدت الصراع بين الحق والباطل، وقد وجد العديد من الشعراء في القصص القرآنية كنزاً ثميناً ومنهلاً عذباً نهلوا من جمال لفظه وروعة قصصه، رغبة منهم في تقديم نموذج شعري يؤثر في سامعه، ويحرك مشاعره.

ولعل غنى القرآن الكريم واحتواءه على كثير من القصص الرائعة والرموز الدالة، وصلاحيته لكل زمان ومكان كانت من الأسباب التي دفعت الشعراء، ومنهم الذين رثوا المدن الأندلسية إلى التوجه إلى القرآن الكريم، ليغرفوا من منهله الذي لن ينضب، فوجدوا ضالتهم في آياته المحكمات، وهنا نأتي على توضيح أثر القصة القرآنية في شعر رثاء المدن الأندلسية.

ففي قصيدة ابن الأبار في رثاء بلنسية والاستجداء بصاحب إفريقية يستخدم التعبير القرآني في الحديث عن قصة موسى -عليه السلام- من سورة الدخان: ﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرِفُونَ﴾¹،¹ يقول ابن الأبار:

¹ سورة الحجرات، آية 13.

² الخوجة، محمد الحبيب: قصائد ومقطعات (صنعة ابن الحسن حازم القرطاجي)، ص 71_17.

الكامل

خَوْضُوا إِلَيْهَا بَحْرَهَا يُصْبِحُ لَكُمْ رَهْواً وَجُوبُوا نَحْوَهَا بَيِّدَاءَها²
فجاءت لفظة الرهو في القرآن الكريم بمعنى السكون، أي اتركه على حالته التي كان عليها، فعندما عبر سيدنا موسى البحر هو وبنو إسرائيل الذين آمنوا معه عندما لحقه فرعون وجنوده، أراد موسى عليه السلام أن يعيد البحر إلى حالته كي لا يلحق به فرعون، ولكن جاء الأمر الإلهي بأن يترك البحر على حالته أي سكونه وانفصاله، وطمأنه أنه سبب لهلاك الكافرين فهم مغرقون، فكان البحر سبباً لهلاك فرعون وجنوده وسبباً لنجاة موسى عليه السلام وقومه³.

فابن الأبار في بيته يستخدم اللفظ القرآني بالمعنى نفسه، فالشاعر يحث على الجهاد من أجل إنقاذ الأندلس ويطلب العون، من خارج الأندلس، عن طريق البر والبحر الذي وصفه بالرهو أي السكون في إشارة منه بأن هذا البحر سيكون سبباً لنجاة الأندلس، كما كان سبباً لنجاة موسى عليه السلام.

فالآثر القرآني واضح في بيت ابن الأبار، فقد اقتبس اللفظ القرآني ومعناه، حيث استُخدم في القرآن بمعنى السكون، واستخدمه الشاعر بالمعنى نفسه في تحريضه على الجهاد، فقدم الاقتباس القرآني للبيت بعداً وعمقاً ليمنحه قوة تأثير في المتلقي، وكأن ابن الأبار يشير إلى تشبيه المجاهدين الذين يدافعون عن الأندلس بأصحاب موسى عليه السلام الذين كانوا على الحق وأنقذهم الله من فرعون وجنوده.

ومن القصص القرآنية التي تأثر بها الشعراء، قصة سيدنا موسى عليه السلام، عندما صنع السامري العجل الذي أضلهم بعد غياب موسى حين ذهب إلى ميقات ربه يناجيه، وادعى أن موسى كان يعبد، وقد ذكر القرآن هذه الحادثة: ﴿وَأَخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ

¹ سورة الدخان، آية 24.

² المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج6، ص 200-204.

³ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم، تحقيق محمد حسين شمس الدين ط.1، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت، 1419هـ. 7 / 232.

﴿حُوَارٌ أَلْمَيَرُوا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾¹، وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾² أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾².

ومن الشعراء الذين تناولوا أحداث هذه القصة القرآنية في شعرهم الشاعر سعيد الشنتريني، عندما تخلص المنصور بن أبي عامر من نفوذ الصقالبة وخطرهم، وذلك بإخراجهم من ديارهم، فكانوا ينادون (لا مساس) خوفاً من تعرضهم لأذى أهل قرطبة، حيث يسجل ذلك بقوله:

السريع

كُلُّ قَتِيٍّ مُنْبَسِطٍ جَائِرٍ	أُخْرِجَ مِنْ قَصْرِ إِمَامِ الْهُدَى
مَسَاسٌ، فَعَلَ النَّاسُ بِالسَّامِرِي	فَمَنْ رَأَيْتَنَا مِنْهُمْ قَالَ: لَا
قَدْ خَفَّ مِنْ ثِقَلِهِمُ الظَّاهِرِ	فَخَفَّ ظَهْرَ الْمَلِكِ الْمُرْتَضَى
مَدُّ زَالَ مِنْ جَهْلِهِمُ الْخَائِرِ 3	وَسَالَ مَاءَ الْعِلْمِ مِنْ وَجْهِهِ

وقد أصبح عجل السامري مثلاً عند شعراء الأندلس يُضرب به في الغواية والضلال والضعف والجبين، فمثل ابن الجدي ملك الأندلس به، فقال:

نَلْقَاهُ أَوْ يَتَلْقَانَا بِهِ خَبْرُ	فِي كُلِّ يَوْمٍ غَرِيبٍ فِيهِ مُعْتَبِرُ
دَوَائِرِ السُّوءِ لَا تُبْقِي وَلَا تَنْزُرُ	أَرَى الْمُلُوكَ أَصَابَتْهُمْ بِأَنْدَلِسِ
هَوَى بِأَنْجِمِ خَسْفًا وَمَا شَعَرُوا	نَامُوا وَأَسْرَى لَهُمْ تَحْتَ الدُّجَى قَدْرُ
يَحْدُو بِهِ مَلْهِيَاهِ النَّايِ وَالْوَتْرِ	وَكَيْفَ يَشْعُرُ مَنْ فِي كَفِّهِ قَدْحُ
فَمَا تَمَرُّ بِهِ الْآيَاتُ وَالسُّورُ	صُمَّتْ مَسَامِعُهُ مِنْ غَيْرِ نَعْمَتِهِ
لَهُ خُورٌ وَلَكِنْ حَشْوُهُ خَوْرُ 4	تَلْقَاهُ كَالْعَجَلِ مَعْبُودًا بِمَجْلِسِهِ

¹ سورة الأعراف، آية 148.

² سورة طه، آية 88-89.

³ المراكشي، ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت: دار الثقافة، 1983م، 264/2.

⁴ الشنتريني، علي بن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق2، ج1، ص256.

ويستحضر الشاعر أبو المطرف بن عميرة في رثائه لمدينة بلنسية قصة آدم عليه السلام عندما أخرجه الله من الجنة بسبب عصيانه لأمره تعالى، مشيراً إلى أن بلنسية هي الجنة التي كان يسكنها أهل الأندلس، وإخراجهم منها يشبه خروج آدم من الجنة، ويتساءل إن كان إخراج بني آدم من الجنة هو سبب لذنوب أبيهم آدم، وعبرة هذه القصة أن إخراجهم من الأندلس كان لذنوب ملوكهم وأمرائهم، حيث يقول:

الطويل

أَمِنْ بَعْدِ رِزْءٍ فِي بِلَنْسِيَةِ نَوَى	بِأَحْشَائِنَا كَالنَّارِ مُضْرَمَةَ الْوَقْدِ
يُزْجَى أُنَاسٌ جَنَّةً مِنْ مَصَائِبِ	تَطَاعَنُ فِيهِمْ بِالْمُنْتَفَةِ الْمُدِ
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لَهَا مِنْ مَطَالِعِ	فَعَادَ إِلَيَّ مَا كَانَ فِيهَا مِنَ السَّعْدِ
وَهَلْ أَذْنَبَ الْأَنْبَاءُ ذَنْبَ أَبِيهِمْ	فَصَارُوا إِلَيَّ الْإِخْرَاجِ مِنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ 1؟

فالشاعر يشير إلى قصة آدم عليه السلام وإخراجه من الجنة، وقد أفاد الشاعر من الطاقة الدلالية والإيحائية للسياق القرآني الذي وردت فيه الآية القرآنية، في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾² والاستدعاء القرآني هنا مبني على المقارنة بين إخراج الأندلسيين من مدنهم التي تماثل إخراج آدم عليه السلام من الجنة، فكلاهما أخرج من الجنة بسبب المعصية، والتعالي على أوامر الله تعالى، لقد جاء التناص من القصة الدينية، ليجسد حالة الحزن والأسى والتفجع التي يعانيتها الإنسان الأندلسي بعد ضياع مدنه كما ارتبط التناص بالموقف ارتباطاً مباشراً، ومنسجماً مع السياق الشعري، ومع لغته من جهة أخرى.

وتفويض الأبيات بالعاطفة الإنسانية والوطنية، ونرى حزن الشاعر وأساه على ضياع الأندلس، بعد استيلاء الأعداء المحتلين على مدنها، وطرد أهلها منها عنوة، وقد استدعى الموقف لغة إنسانية قائمة على استخدام أسلوب الاستفهام والتمني الذي يتجاوز معناه النحوي اللغوي العادي

¹ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص493.

² سورة البقرة، آية 36.

إلى معان أخرى أبعد، يكتسب من خلالها دلالات جديدة في سياق تجربة الشاعر الإنسانية، فالإلحاح في استخدام أسلوب الاستفهام في موقف الدهشة والاستنكار يعكس توتر الشاعر وحيرته وقلقه وضعفه، ويجسد ما يعتصر قلبه من مشاعر مشحونة بالألم والحسرة والتفجع، وبذلك يسهم هذا الأسلوب في تعميق المغزى الدلالي، وتركيز التجربة، فضلاً عن إسهامه في نفي الرتابة عن الأبيات، وإكسابها غنائية عالية، وحضور عنصر التأثير في المتلقي.

ويشير ابن هارون في رثاء إشبيلية إلى قصة آدم عليه السلام، فيرى الأندلس جنة، وقد أخرج منها أهل الأندلس بسبب ذنوبهم، كما أخرج آدم عليه السلام من الجنة لذنوبه اقتترفه فقد عصى أمر الله تعالى وأكل هو وزوجته من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها فيقول:

البيسط

يَا جَنَّةَ زَحْرَحْتَنَا عَنْ زَخَارِفِهَا دُنُوبَنَا فَلَزِمْنَا الْبَثَّ وَالنَّدَمَا¹

فالشاعر باستحضاره قصة آدم عليه السلام يربط حالة الأندلسيين الذين أخرجوا من الأندلس بحال آدم عليه السلام الذي أخرج من الجنة، والشاعر يؤكد أن ذنب آدم كان سبباً لخروجه من الجنة، وكذلك ذنوب الأندلسيين وعصيانهم أوامر الله تعالى والبعد عن الدين كان السبب لإخراجهم من وطنهم التي تمثل بالنسبة لهم الجنة.

إن استحضار القصة القرآنية في بيت ابن هارون خدم الرسالة التي يود الشاعر أن يوصلها للمتلقي في بيت من الشعر، كما حرك المشاعر الدينية والوطنية فيه، وكأن البيت دعوة إسلامية للابتعاد عن الذنوب والمعاصي حتى لا تكون سبباً في هلاك الإنسان.

وفي مقصورة حازم القرطاجني (ت 684هـ) في رثاء الأندلس والاستجداد الأمير الحفصي بتونس إشارة إلى أكثر من قصة من القصص القرآنية من أجل أخذ العظة والحكمة منها، فقد أفاد من القصص القرآني التي نصر فيها الله الضعيف على القوي، فإذا أراد الله أن يقضي أمراً فلا مرد لهذا الأمر، وهو إنما يريد أن يبيث الشجاعة في المجاهدين بألا يخافوا حتى لو كانوا أقل قوة وعدداً، فإذا أراد الله لهم النصر فإنه سينصرهم، كما فعل في جيش أبرهة الأشرم الذي جاء ليهدم

¹ المراكشي، ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق مرندا وابن تاوت ج3، ص382.

الكعبة، أرسل الله تعالى طيوراً صغيرة، ترميهم بالحجارة فهذه الطيور بالرغم من صغرها وقلة قوتها إلا أنها انتصرت بإرادة الله على جيش أبرهة، وأشير إلى هذه القصة في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾¹، يقول حازم القرطاجني:

الرجز

لَا تَعْتَقِدْ أَنْ لِحُلُقِ فُؤُوءَ إِلَّا إِذَا مَا اللَّهُ أَعْطَاهُ الْقُوَى
فَأَصْغَرَ الْأَشْيَاءِ قَدْ أَتَرَ فِي أَعْظَمَهَا بِالْعَوْنِ مِنْ رَبِّ الْعُلَا
قَدْ أَهْلَكَ الْأَحْبُوشَ طَيْرٌ قَدْ رَمَى جُبُوشِهِمْ بِمَكَّةَ بِمَاءِ مَنْى 2

ثم يذكر الهدهد في قصة سليمان (عليه السلام) الذي جاءه من سبأ نبأ عظيم، فهذا الطائر الصغير استطاع أن يقوم بأمر عظيم، يقول تعالى: ﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾³، يقول حازم القرطاجني:

الرجز

وَهُدَّ قَدِيمًا هَدَاهُ دَبَّابُ مَا كَانَ هَدَاهُ لِبَلْقَيْسِ ابْنَتَى 4
إن استشهاد الشاعر بهذه القصص والأمثلة يعزز القوة والشجاعة في نفوس المجاهدين بأن القوة ليست في العدد والكثرة، وإنما النصر يتحقق بالإيمان وبالتأييد من الله تعالى.

وبعد قصتي أصحاب الفيل وهدهد سليمان، يذكر حازم القرطاجني قصة النمرود الملك الجبار الظالم الذي عرف بقوته وجبروته، وادعى أنه إله وكان يعبده الناس، وعندما بعث الله سيدنا إبراهيم - عليه السلام - ليدعوه إلى الإسلام، رفض وحاول قتل سيدنا إبراهيم بوضعه في النار، لكن الله تعالى أمر النار بأن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم، وأرسل الله تعالى بعوضة دخلت في أنف النمرود، فمكثت فيه وعذبتة ثم مات بسببها، فيقول في هذا:

¹ سورة الفيل، آية 3-4.

² الخوجة، محمد الحبيب: قصائد ومقطعات (صنعة ابن الحسن حازم القرطاجني)، ص 17-71.

³ سورة النمل، آية 22.

⁴ الخوجة، محمد الحبيب: قصائد ومقطعات (صنعة ابن الحسن حازم القرطاجني)، ص 17-71.

الرجز

وَأَلْقَتِ النَّمْرُودَ عَن كُرْسِيِّهِ
وَقَلَّمَ مَدَّ الْمَدَى لِمَن عَادَا
بَعُوضَةً عَدَّتْ إِذْ عَادَا
فِي الظُّلْمِ وَالْعُدُوَانِ مَمْدُودَ الْمَدَى
رَأَى عِقَابَ اللَّهِ فِيمَن قَد بَغَى 1؟

وأبو البقاء الرندي في قصيدته التي يرثي فيها الأندلس يأتي على ذكر قصص الأقبام السابقة، كعاد، وقارون وما ملك من ذهب، وسليمان الذي ملك الدنيا، ويتساءل أين كل هؤلاء؟ وأين ملكهم؟ ثم يجيب عن تساؤلاته بأن الكل قضى الدهر عليهم وأصبحوا عبرة للأمم بعدهم، ففجائع الدهر كثيرة ومتنوعة، ومن كل هذا يطلب الرندي أخذ العبرة والعظة على النهج القرآني الإسلامي حين وردت قصص الأقبام السابقة، كما سار على النهج القرآني في استخدام أسلوب السؤال والاستفهام، حيث قال تعالى: ﴿الَّذِي تَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾²، وقال تعالى في قصة سيدنا سليمان: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِن سَائِغِهِمْ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْرَجُ كَانُوا كَالْمِثْثِ﴾³ فقد منَّ الله تعالى على سليمان بنعم كثيرة، وفي نهاية الأمر كان كان الممات مقدرًا عليه، فمهما بلغ عظم الإنسان فمصيره الزوال، وهذه هي الحكمة المقصودة من إيرادها للقصص، التي يجب أن نأخذ العبرة منها كما قال الرندي في قصيدته:

البيسط

أَيِّنَ الْمُلُوكِ ذُو النَّيْجَانِ مِنْ يَمَنِ
وَأَيِّنَ مَا شَادَهُ شَدَادُ فِي إِرْمِ
وَأَيِّنَ مِنْهُمْ أَكَالِيْلٌ وَتِيْجَانُ؟
وَأَيِّنَ مَا سَاسَهُ فِي الْفُرْسِ سَاسَانُ؟
وَأَيِّنَ عَادٌ وَشَدَادٌ وَقَحْطَانُ؟ 4

¹ المصدر السابق، ص 17-71

² سورة الفجر، آية 6.

³ سورة سبأ، آية 14.

⁴ الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص 112-114.

فالرندي يعبر بنبرة حزينة أن هؤلاء لم يبق إلا ذكرهم، وكأنهم لم يكونوا يوماً، فأمر الله الذي أصاب تلك الأقسام التي كفرت ربه وكذبت رسله لا مرد له، ثم يذكر (دارا) وقاتله لنتذكر كيف دار الزمان عليهما، وكأنما يقول لأهل الأندلس: لقد دار الزمان عليكم كما دار عليهما، ويُذكر بكسرى وإيوانه، وكل هذا الملك صار إلى العدم، ويتابع الحديث عن سليمان عليه السلام ويتساءل أين سليمان الذي لم يصعب عليه أمر الدنيا وأملاكها؟ يريد الرندي أن نتذكر كل الأقسام، وكل من كان له شأن وأتى الزمان عليه من أجل أن ندرك أن كل العظمة التي كانت للأندلس في عهد الإسلام قد تغيرت وزالت كما زالت الأقسام السابقة، فيقول:

البيسط

أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمْرٌ لَا مَرَدَّ لَهُ	حَتَّى قَضَوْا فَكَأَنَّ الْقَوْمَ مَا كَانُوا
تَخَلَّفُوا عِبْرًا وَأَصْبَحُوا حَبْرًا	كَمَا حَكَى عَنْ خَيَالِ الطُّيْفِ وَسَنَانِ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدَتْهَا دُولُ	مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَرْمَانُ
دَارَ الزَّمَانُ عَلَى دَارَا وَقَاتِلِهِ	وَأَمْ كِسْرَى فَمَا آوَاهُ إِيْوَانُ
كَأَنَّمَا الصَّعْبُ لَمْ يَسْهَلْ لَهُ سَبَبُ	يَوْمًا وَلَا مَلِكَ الدُّنْيَا سُلَيْمَانُ 1

يقر الرندي أن الدنيا مليئة بالمصائب التي أتى على ذكرها، ولكن بالرغم من ذلك فإن كل هذه المصائب لا تعد شيئاً في مقابل ما حدث للإسلام في الأندلس، فكل تلك المصائب لها ما يخفف وقعها، أما مصيبة الإسلام في الأندلس فليس لها ما يخفف وقعها وأنها تعلق على النسيان، فيقول:

البيسط

فَجَائِعُ الدُّهْرِ أَنْوَاعٌ مُنَوَّعَةٌ	وَلِلزَّمَانِ مَسْرَاتٌ وَأَحْزَانُ
وَلِلْحَوَادِثِ سُلُوانٌ يُهَوِّنُهَا	وَمَا لِمَا حَلَّ بِالإِسْلَامِ سُلُوانٌ 2

إن كل الأحزان يمكن أن يتناساها الإنسان، أما ما حدث للإسلام في الأندلس فلا يوجد ما يخفف من هذه المصيبة، لقد أظهر الرندي مدى قوة اعتناق الأندلسيين للإسلام، ومدى قوة الثقافة الإسلامية؛ ليصبغ قصائده بها.

¹ الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص 112-114.

² المصدر السابق، ص 112-114.

والشاعر أبو المطرف بن عميرة يعزو سقوط مدينة بلنسية إلى أحداث الدهر ويستحضر القصة القرآنية قصة قوم سبأ، وقد وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ^ص جَتَّانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ^{٥٠} فَاعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَتَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ^١﴾.

يقول:

الطويل

كَذَلِكَ إِلَى أَنْ صَاحَ بِالْقَوْمِ صَائِحٌ وَأَنْذَرَ بِالْبَيْنِ الْمَشْتِ مُنْذِرٌ
وَفَرَقَهُمْ أَيِّدِي سَبَاً وَأَصَابَهُمْ عَلَى غَرَّةٍ مِنْهُمْ فَضَاءٌ مُّقَدَّرٌ²

ويُظهر الشاعر في هذين البيتين معالم الاستسلام للقضاء والقدر، فهو يدرك أن واقع المسلمين لا يقوى على استرداد المدينة، ويستدعي الشاعر المثل العربي: "تفرقوا أيدي سبأ" أو "ذهبوا أيدي سبأ".

فالشاعر في هذا التناص يماثل بين حال قوم سبأ الذين كانوا يعيشون بنعمة ورخاء، فلما كفروا بنعمة الله، ضاع ملكهم، وشتت شملهم، ومزقوا شر ممزق، وحال أهل الأندلس الذين كانوا في جنة من جنات الأرض، فلما اقترفوا الذنوب، وعصوا أوامر ربهم كان مصيرهم أن أخرجوا من مدنهم وأوطانهم وتشردوا في البلاد.

من هنا نجد أن التناص في هذا البيت قد خدم الجو النفسي والفكري الذي يعبر عنه الشاعر، فقد أدى التناص وظيفته في تجسيد الحالة الشعورية التي تسيطر عليه من الحزن والأسى على سقوط مدينته في أيدي المحتلين، كما هدف الشاعر إلى تحذير أهل الأندلس من اقتراف الذنوب والاستمرار في المعاصي.

وبهذا نجد أن المنبع الديني قد ترك أثراً كبيراً في شعر رثاء المدن الأندلسية، حيث منحها جمالاً في القيمة حين أعطاها اتساعاً وقدرة على التعبير، "فالدين والفن يلتقيان في تناولهما

¹ سورة سبأ، آية 15-16.

² التلمساني، المقري، نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج 4 ص 495.

للموضوع الإنساني والأخلاقي، وتقديرهما للجمال، غير أن الدين يؤكد الجمال المطلق، في حين أن الفن يبحث ويؤكد الجمال الإنساني المحدود، ولأجل ذلك فإن الفن إذا أراد أن يبقى حياً، فعليه أن يستقي دائماً من المصدر الذي جاء منه ... عليه أن يتصل بالدين؛ لأن اتصال المحدود بالمطلق، والناقص بالتام من شأنه أن يمنح الفن اتساعاً واستمرارية وفاعلية ... فكل قصيدة شعرية، أو أي عمل فني أو أدبي مدين في توجهه وخاصيته الشعرية إلى الدين¹

الرافد الثاني: الحديث النبوي الشريف

شكل النص الديني (القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف) بفضل بيانه وفصاحة نصوصه، رافداً أساسياً من روافد ثقافة الشعراء الأندلسيين ، وكان حضور النص الديني فيما يقولون شاهداً حياً على عمق صلتهم بالقرآن الكريم والحديث النبوي وتأثرهم بهما.

وقد أولى الدارسون توظيف النص القرآني عنايتهم، فيما يكتبون من أبحاث نقدية في دراسة النصوص الشعرية الأندلسية، أما الحديث النبوي فقد حظي باهتمام أقل قياساً بالنص القرآني؛ لهذا جاء هذا القسم من الدراسة ليكشف عن مواقع استدعاء الحديث النبوي في شعر رثاء المدن الأندلسية، وبيان قدرته على إعادة ما استوحاه من نصوص غائبة، في صور جديدة، لها تأثيرها العميق في ذهن المخاطب ووجدانه، حيث وجد شعراء رثاء المدن الأندلسية هذا الرافد منبعاً غنياً بالطاقات، والإمكانات الفنية التي تسعفه في إيصال مشاعره، وبيان المعاني التي يقصدها، فقد استثمر الشاعر الحديث النبوي الشريف في أشعاره الأمر الذي من شأنه أن يسهم في تقوية النص واتحافه بقيمة جمالية، ولم يكن استحضار شعراء رثاء المدن لهذا الرافد النثري، وتوظيفه في الخطاب الشعري أقل أهمية من القرآن الكريم، فالقرآن الكريم والحديث النبوي يشكلان "متعالياً

¹ الكلوت، يوسف شحدة: الأخلاق الإسلامية في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، الجامعة الإسلامية: غزة، 1986، ص 586-587.

نصياً¹ بتأثيرها وامتدادها في اللحظة التاريخية، وفي اللحظة الراهنة، كونها نصين مقدسين لهما امتداد فاعل في الحاضر والماضي، ومنهل عذب وخصب، لمختلف أنواع التفاعلات النصية²

وعرف عن الأندلسيين شدة تعلقهم بالحديث النبوي الشريف وتعلمه، فكان من مكونات الثقافة الأساسية للأندلسيين، وضمن العلوم التي طلبوها في ارتحالهم، وفي ذلك يقول أبو بكر بن عربي- بعد حديثه عن ضرورة الأخذ من كل علم بطرف-: "ينظر في أصول الدين، ثم أصول الفقه ثم الجدل، ثم الحديث وعلومه"³ وهذا يدل على اهتمام الأندلسيين بكتب الحديث الشريف فكثرت المصنفات والشروحات على كتب الحديث.

يأتي اهتمام الأدباء الأندلسيين بالحديث الشريف، وتوظيفه في نتاجهم الأدبي سواء أكان شعراً أم نثراً كمحفز إبداعي لغوي وجمالي، إضافة إلى الأساليب الفنية للنص الديني، التي تقدم للأديب قدراً واسعاً من الخيارات الإبداعية، فيضفي على العمل الأدبي رقيماً وإبداعاً، فالحديث الشريف هو النص الأبلغ بعد القرآن الكريم.

ليس غريباً أن يقتبس الشاعر الأندلسي من الحديث الشريف وهو المدرك لمكانة الحديث في خلق القاعدة الرصينة لثقافة الفرد، فضلاً عن مكانته المقدسة في نفس الشاعر، حيث ترك الشعراء في مؤلفاتهم وأشعارهم بصمات واضحة المعالم، فإذا بحثت في شعرهم تجد كثيراً منه ما يستلهم آيات القرآن أو الحديث الشريف، في أغراضه الشعرية، ومنها رثاء المدن الأندلسية، فقد استثمر الشعراء ما تضمنته النصوص الدينية من عناصر فنية وجمالية عمقت تجربة الشاعر الشعورية، فعلاقة الشاعر بالتراث هي "علاقة استيعاب وفهم وإدراك واع للمعنى الإنساني والتاريخي للتراث، وليس بحال من الأحوال علاقة تأثير صرف"⁴.

¹ هو كل ما يجعل نصاً يتعالق مع نصوص أخرى بشكل مباشر أو ضمني، انظر: يقطين، سعيد: انفتاح النص الروائي، ط2، المركز الثقافي العربي: بيروت، لبنان، 2001ص96-98.

² ينظر: دودين، رفقة محمد عبد الله: توظيف الموروث في الرواية الأردنية، الطبعة الأولى، منشورات وزارة الثقافة: الأردن-الأردن- عمان، 1997، ص61.

³ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: مقدمة ابن خلدون، اعتنى به: هيثم جمعه هلال، لبنان-بيروت: مؤسسة المعارف، ط1، 2007م، ص577.

⁴ إسماعيل، عز الدين: الشعر العربي المعاصر(قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية)، بيروت-لبنان، دار العودة ودار الثقافة

ومن أمثلة استلهاهم الحديث الشريف، ما أورده ابن الأبار في قصيدته التي رثى فيها الأندلس، واستنجد فيها بالخليفة الموحي، كي ينقذ مدن الأندلس المفقودة من أيدي الأعداء المحتلين من قبل أن تدك حصونهم، وتسقط كل راياتهم، ويخلص بلنسية التي تواجه الحصار، يقول الشاعر:

البيسط

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدُلُسَا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مُنْجَاتِهَا دَرَسَا
وَحَاشَ مِمَّا تُعَانِيهِ حَشَائِشُهَا فَطَالَمَا ذَاقَتِ الْبَلَوَى صَبَاحَ مَسَا
صِلْ حَبْلَهَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الرَّحِيمُ فَمَا أَبْقَى الْمِرَاسُ لَهَا حَبْلًا وَلَا مَرَسَا¹

يريد الشاعر من أبي زكريا أن يعيد للبلاد عزها ومجدها، وأن يحقق النصر على الأعداء بخيله التي هي خيل الله من خلال مخاطبته بفعل الأمر (أدرِك) وكأن ابن الأبار يكتب التاريخ آنذاك فإن المدينة سقطت قبل أن يدركها أيٌّ من جيوش المسلمين.

فصور ابن الأبار في الأبيات مشاعره المليئة بالحزن والأسى، وأظهر بأسه وخيبة أمله، لقرب ضياع مدينته، فنهاية الأندلس قريبة موشكة، لذا يستغيث بالخليفة لإنقاذ الأندلس؛ فقد استدعى قول الرسول صل الله عليه وسلم: "يا خيل الله اركبي"² الذي يحث فيه المسلمين في غزوة الأحزاب على جهاد الكفار ومقاومتهم ونصرة دين الله، من أجل إظهار مشاعره ولبزيد من عمق التأثير في الخليفة ليهب لنجدة الأندلس.

وقد جاء هذا الاستدعاء منسجماً مع الموقف العام للنص، فهذا يتناسب مع طبيعة الممدوح، فالشاعر يستنصر فيه الجهاد المقدس، الذي يشبه جهاد المسلمين ضد الكفرة في غزوة الأحزاب، هذا الربط الديني أعطى النص عمقاً وجعله أكثر أثراً في نفس المتلقي، وقد اندمج النص الديني بالنص الشعري، وأعطاه مصداقية بوصف النص المستدعى نصاً دينياً يتجلى فيه صدق المحتوى، وقدسيته.

¹ ابن الأبار، محمد بن عبد الله: ديوان ابن الأبار البلنسي، تحقيق عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر: تونس، 1985م، ص396.

² العجلوني، إسماعيل: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، مطبعة دار الرسالة: عمان، 1405هـ، (13/2)، ج11، ص123.

أما الشاعر ابن سهل في رثائه إشبيلية، فقد روعه تعطيل السنن النبوية في الأندلس وتغير عقيدتها، فيظهر الحزن والأسى على دين سيدنا محمد -عليه السلام- فما هي الخيل تتحرق شوقاً وتتحرك ضجراً في مرابطها لتجد سبيلاً إلى ميدان الوعى لمقاتلة الرهط الكفار الذين أبطلوا سنن النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-، وعطلوا منابر دعوة التوحيد ونكروا المعالم، وغيروا المشاعر، وقتلوا المسلمين، لعله بذلك يبعث عزائمهم، ويثير حفاتهم، ويدفع إلى الجهاد كتائبهم، ثم يخاطبهم في لهجة استنكارية ونغمة توبيخية، فيقول:

الكامل

كم أبطلوا سنن النبي، وعطلوا
 من جلية التوحيد ذروة منبر
 أين الحفائظ ما لها لم تتبعث؟
 أين العزائم ما لها تتبيري؟
 أيعز منكم فارس في كفه
 سيفاً ودين محمد لم ينصر؟¹

لقد سلك في كلامه مسلك الشدة في الخطاب والعتاب، واستخدم كم الخبرية التي تفيد الكثرة للدلالة على كثرة السنن التي عطلت في الأندلس، وكأنه يقول إن الدين الإسلامي دين سيدنا محمد -عليه السلام- لم يعد له وجود في الأندلس، وفيها تظهر عاطفة الشاعر تجاه السنة النبوية الشريفة وحبها، وجزعه وحزنه على تعطيلها.

والشاعر مالك بن المرحل يستحضر الحديث النبوي الشريف: " ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ"² ، وقوله عليه السلام: " لا يرحم الرحمن من لا يرحم"³ ، ويضمنه قصيدته التي يستجد فيها بالمجاهدين للأندلس، ويحضهم على الجهاد، فيقول:

الرجز

لَأَدَّتْ بِكُمْ أَنْدَالُ نَاشِدَةً
 بِرَحِمِ الدِّينِ وَنِعَمِ الرَّجْمِ
 وَاسْتَرْحَمْتُكُمْ فَأَرْحَمُوها إِنَّهُ
 لَا يَرْحَمُ الرَّحْمَنُ مَنْ لَا يَرْحَمُ

¹ الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص69؛ ابن سهل: الديوان، البستاني، ص 162-163.

² حديث مرفوع رواه البخاري في الأدب المفرد ، وأبو داود ، والترمذي ، وآخرون

³ رواه الإمام أحمد في مسنده، و جاء في مختصر الأحكام المستخرج على جامع الترمذي

مَا هِيَ إِلَّا قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِكُمْ وَأَهْلُهَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنْهُمْ¹

فالشاعر يستعمل سيلا من مشتقات الفعل (رحم): رحم، الرحم، استرحمتكم، فارحموها، لا يرحم الرحمن من لا يرحم، وكأنه بذلك يبرز مكانة الأندلس من واقع المتلقي، وواجبه الديني نحوها في أسلوب يقطر رقة وشفقة.

فلا شك أن هذه الأبيات، والنص كله، تجسد براعة ابن المرحل في تناول الموضوع، فطريقته في النظم تجعل المتلقي يلمس فيها عمق النفس الشعري وإيحائه القوي بالمأساة، بقدر ما يجد فيها بساطة وسهولة تغنيه وتعينه في مأخذها.

وفي نهاية مقصورة حازم القرطاجني إشارة إلى الحديث النبوي: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: " كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر² "أقطع" "أجزم" يقول الشاعر:

الرجز

فَالْبَدْءُ، بِاسْمِ اللَّهِ أَوْلَى مَا بِهِ عِنْدَ إِفْتِتَاحِ كُلِّ أَمْرٍ يَعْتَبِي،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَجَلُّ غَايَةٍ يَبْلُغُ بِالْقَوْلِ لَهَا وَيُنْتَهِي،³

وبالرغم من أن بعض أهل العلم ضعف الحديث النبوي إلا أن جمعا من العلماء يورد أن من سنة النبي عليه السلام افتتاح كل أمر بالبسملة، فالشاعر أشار إلى الحديث النبوي، فهو بدأ قصيدته وختمها بذكر اسم الله، فالشاعر يؤكد على السير على النهج الإسلامي.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "افعلوا الخير دهركم، وتعرضوا لنفحات رحمة الله؛ فإن لله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده".

¹ الفاسي، علي بن أبي زرع: النخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية، ص 98-100.

² رواه الإمام أحمد في "المسند" (329/14) طبعة مؤسسة الرسالة

³ الخوجة، محمد الحبيب: قصائد ومقطعات (صنعة ابن الحسن حازم القرطاجني)، ص 17-71.

الرافد الثالث: الشعائر الإسلامية والمقدسات الدينية

شكّلت الشعائر الإسلامية رافداً مهماً في شعر رثاء المدن الأندلسية، حيث كان الشعراء منطلقين من ثقافتهم وعلومهم، ويحرصون على إبراز هذه الشعائر وكل ما يتعلق بها، فكان الدعاء سلاحهم القوي في وجه الطغيان وفساد الحكام، وكانت الصلاة ومكانها -المساجد- حاضرة بقوة، ذلك أنها عمود الدين ولا إيمان لمن لا صلاة له، وهذا يبين حرص النصارى حين استولوا على المدن الأندلسية على إزالة المساجد وتدميرها، وإحلال الكنائس وبيوت اللهو مكانها.

كان ما حل ببلاد الأندلس وأهلها، من قتل وتدمير، وسبي وأسر، لكل المعالم الإسلامية، حياً وجمادها، دافعاً لشعراء رثائها، ليضمنوا أشعارهم بألوان من الدعاء، يتضرعون فيه إلى الله تعالى راجين، متأملين من الله النصر والثبات، وهم على هذا النهج والسير إنما يسيرون على الخطى الإسلامية، ويقفون بالأنبياء والرسل وهم خير الخلق إذا نزل بهم البلاء واشتد بهم الكرب، وعظمت المصيبة عندهم، لجأوا إلى الله وتضرعوا إليه، وأظهروا افتقارهم إليه بالشكوى، فهذا سيدنا نوح عليه السلام لما اشتد عليه أدى قومه حاصروه وهددوه، وكانوا يضايقون أتباعه فيفتنهم عن دينهم، قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ﴾¹ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ¹، أما الرسول - صلى الله عليه وسلم-، ما كان ليترك الدعاء والتضرع إلى الله تعالى في الحرب، وفي المحن.

عندما رأى الشعراء ما حل ببلاهم الجميلة، ووطنهم العزيز، ضاقت صدورهم، وتحركت مشاعرهم، فكان الشعر سلاحهم في مواجهة المصائب، فبنوا في شعرهم الاستنجاد والاستصراخ، وحرصوا على الجهاد والدفاع عن الأندلس، وسجلوا ما يحدث لتلك البلاد من تدمير، وصوروا القتل والتنكيل، ورسوموا صورة للعدو الغاشم الذي لم يرحم الكبير ولا الصغير، بعد كل هذا يتجهون إلى الله شاكين متضرعين طالبيين العون منه ، راجين النصر، أملين إنقاذ ما تبقى، فهذا ابن حزم الأندلسي (ت456هـ) يقول راجياً داعياً الله أن يبقيه في الأندلس:

¹ سورة القمر، آية 10-11.

الطويل

فَيَا رَبِّ يَوْمٍ فِي ذُرَاهَا، وَلَيْلَةٍ،
وَصَلْنَا هُنَاكَ الشَّمْسَ بِاللَّهُوِ، وَالبَدْرَا 1
وعندما رثى إبراهيم بن خلف بن فرقد الأندلس، وتوجه ببث الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى،
مستخدماً الدعاء في السر والعلن سلاحاً له ضد ما يحدث في الأندلس، فهذه المصيبة الفادحة وهذا
البلاء العظيم، لا معين عليها إلا الله، لذلك اتجه إلى ربه ينشد عونه فقال:

المتقارب

وَيَشْكُو إِلَى اللَّهِ شَكْوَى شَجٍّ،
وَيَدْعُوهُ فِي السِّرِّ ثُمَّ الْعَلَن
وَكَانَتْ رِبَاطًا لِأَهْلِ التَّقَى
فَعَادَتْ مَنَاطًا لِأَهْلِ الْوَتْنِ 2
والأمر نفسه عند الشاعر أبي اسحاق إبراهيم بن عبيد، حين رثى الأندلس واستجد بابن
الأحمر لإنقاذ مدينة جيان، فلجأ في قصيدته إلى الدعاء، في جو روحاني فيه خشوع، وتضرع
راجياً من الله النصر والعون، فقال:

الوافر

إِلَى الْعَالَمِينَ إِلَيْكَ يَشْكُو
فَقِيرٌ لَا يَقُومُ لَهُ فُعُود
فَأَنْتَ الْمُسْتَجِيبُ لِمَنْ دَعَاهُ
وَكُلُّ الْجُنْدِ جَنَّاكَ يَا مُجِيدُ
فَنَصْرًا يَا إِلَهَ الْخَلْقِ نَصْرًا
فَأَنْتَ اللَّهُ تَفَعَّلْ مَا تُرِيدُ 3
ويبدأ الشاعر دعائه ببث الشكوى إلى الله تعالى، ثم يؤكد أن المجيب هو الله تعالى، ثم يطلب
النصر ويلج عليه بتكرار كلمة (نصراً)، ويعيد مرة أخرى أن الله سبحانه وتعالى قادر على فعل ما
يريد.

¹ ابن الخطيب، لسان الدين: أعمال الأعلام، 1956م، ص 107-108.

² الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص 374.

³ زمامة، عبد القادر: نص أندلسي لم ينشر: مجلة المناهل المغربية، عدد 26، السنة العاشرة، جمادى الأولى، 1403هـ-
1983م، ص 291.

كانت ظاهرة الدعاء في شعر رثاء المدن واضحة تطلعننا على ارتباط الشاعر بدينه وقرآنه،
وسنة نبيه، وتدل على عاطفته الدينية فليس بيد الشاعر شيء لفعله، فيقدم لها الدعاء، يقول مالك
ابن المرحل:

الكامل

يا ربّ وفقنا وألهمنا لما	فيه لنا الخيرُ فأنتَ المُهم
يا ربّ أصلحْ حالنا وبالنّا	أنتَ بما فيه الصّلاحُ أعلم
يا ربّ وانصرنا على أعدائنا	يا ربّ واعصمنا فأنتَ تعصم
يا ربّنا ما داؤنا شيءٌ سوى	ذنوبنا فارحمْ فأنتَ ترحم ¹

تُظهر أبيات الدعاء عند الشعراء عاطفتهم الوطنية تجاه الأندلس ورغبتهم في النصر والتحرر،
كما تظهر ثقافتهم الدينية من خلال استخدام الدعاء، فقد ساروا في دعواتهم على نهج الأنبياء
والرسل والصالحين، فقد واجه الرسل المصائب التي كانت تحل بهم، والصعوبات التي كانت
تواجههم في دعوة أقوامهم، بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى، شاكين طالبيين العون، وقد لجأ الشاعر
إلى التكرار العمودي في أربعة أبيات، والتكرار الأفقي في بيت واحد، وهذا يدل على النفحة
الإيمانية، من خلال تكرار (يا رب، وأنت، وأنت).

لم تكن الحرب على الأندلس في المقام الأول من أجل دوافع عسكرية أو من أجل أطماع
اقتصادية، بل كانت في المقام الأول حرباً دينية، من أجل القضاء على الإسلام في الأندلس؛ فما
أن تسقط المدينة حتى يُسارع العدو إلى تغيير معالم الدين الإسلامي فيها، وتعطيل شرائعه بتبديل
المساجد إلى الكنائس، وتحويل الأذان إلى رنين الناقوس، وغدا هذا السلوك أسلوباً تقليدياً متبعاً.²

لقد أثرت سياسة العدو في طمس معالم الحضارة الإسلامية على الشعراء؛ فاستنارت قرائحهم،
فراحوا يرسمون صوراً مؤثرة لما حل بالمدينة الأندلسية، وما أصاب المعالم الإسلامية من خراب
وتشويه، وركز الشعراء على قضية التحول العفدي، فانقلبت المدينة من حال الإسلام إلى الكفر،

¹ الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص 98-10.

² ينظر: عبد البديع، لطف: الإسلام في إسبانيا، ط 1، مكتبة النهضة المصرية: القاهرة، 1958م، ص 95.

وهذا واضح من خلال الأوصاف الحزينة التي رسمها الشاعر أبو البقاء الرندي في رثائه الأندلس، حيث ذكر تحول المساجد إلى كنائس تفرع فيها أجراس النصارى .

فنونية الرندي هي واسطة العقد في شعر رثاء المدن وأكثر نصوصه شهرة وأشدها تعبيراً عن الواقع، فهي ترثي الأندلس في مجموعها مدناً وممالك، فتصور ما حل بالأندلس من خطوب جليلة لا عزاء فيها، ولا تأس دونها وكيف ضاعت قرطبة دار العلوم. وإشبيلية مهد الفن، وحمص مهبط الجمال، وكيف أقفرت ديار الإسلام فصارت المساجد كنائس وغدا صوت الأذان صوت ناقوس، فهي صورة واضحة لدمار المعالم الإسلامية وتحولها من حال الإسلام المجيد إلى حال من الكفر والذل، حتى أن الرندي يستتطق تلك العالم الإسلامية، فيجعلها ترثي ما حل بالإسلام والأندلس فيقول:

البيسط

تبكي الحَنيفَةَ البيضاءً من أَسَفٍ	كما بكى لِفِرَاقِ الإِلفِ هَيْمَانُ
عَلَى دِيَارٍ مِنَ الإِسْلامِ خَالِيَةٍ	قَد أَقْفَرَتْ وَ لَهَا بِالْكَفْرِ عُمَرَانُ
حَيْثُ المَسَاجِدُ قَد صارتِ كَنائِسَ ما	فِيهِنَّ إِلا نَوَاقِيسٌ وَصُأْبَان
حَتى المَحارِيبُ تَبْكي وَهِيَ جامِدةٌ	حَتى المَنابِرُ تَرثِي وَهِيَ عِيدانُ ¹

بعد أن وصف الرندي ما حل بالإسلام، ومعالم الإسلام يصف حالة الذل التي أصبح عليها ملوك الأندلس، ويعقد مقارنة بين ما كانوا عليه بالأمس في ظل لإسلام من عز وكرامة، وكيف أصبحوا بعد غياب الإسلام أدلة، فقد كانوا ملوكاً وأصبحوا عبيداً، فيقول:

البيسط

يا من لذلّةِ قومٍ بعدَ عَزِّهِمُ	أحال حالهم جورٌ وطُغيان
بالأمسِ كانوا ملوكاً في منازلهم	واليومَ هم في بلاد الكفر عبّدان
فلو تراهم حيارى لا دليلَ لهم	عليهم من ثيابِ الدّلِ ألوان

¹ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص487.

ولو رأيت بكاهم عندَ بَيعهم لهالك الأمرُ واستهوتك أحران¹

ويستمر الرندي في وصف حال الأندلس فالأسر والقتل والتتكيل يعم البلاد، والرضيع يبعد عن أمه، والنساء تسبى، والحرقات تستباح، كل تلك المشاهد تفتقر قلوب الغير من العرب والمسلمين على دينهم، وكأن هذا البيت يستصرخ المسلمين من جميع الدنيا لإنقاذ الأندلس، يقول:

البيسط

يا ربَّ أمَّ وطفلي حيلَ بينهما
كما تفرقَ أرواحَ وأبدانُ
وطفلةٍ مثلَ حُسنِ الشمسِ إذ طلعت
كأنما هي ياقوتٌ ومُرجانُ
يقودُها العُجُ للمكروهِ مُكرهَةً
والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ
لمثلِ هذا يذوبُ القلبُ مِنْ كَمِدِ
إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ²

يعبر الشاعر في هذه الأبيات عن مكانة الأندلس في ظل الإسلام، ويقارنها بعد السقوط، وغدت المقابلة عنصراً أساسياً من عناصر الشعر الذي يرثي المدن المحتلة، فالمفارقة تزيد الإحساس بالمأساة، وتجعل المصيبة أعمق في النفس، فكل ما كان في المدينة من حضارة عريقة ومقدسات إسلامية، انقلبت إلى خراب ودمار، وقد صدر ذلك عن شعور صادق حزين، وعاطفة دينية إنسانية ملتاعة ومتأثرة بالأحداث الدامية.

لقد ظهرت هذه العاطفة الدينية على المقدسات الإسلامية عند كثير من الشعراء الذين رثوا الأندلس، ومدنها، كان منهم أبو عمر بن المرابط عندما استجد بابن الأحمر، فهو يصف ما حل بالمساجد التي تحولت إلى كنائس، ويصف مظاهر التحول في المساجد، فالقس والناقوس والمنارة، قد أصبحت مكان المنبر، بل وأكثر من ذلك لقد ديست حرمانها أيضاً ونجست طهارتها، فتحولت المساجد إلى أماكن لمقارعة الخمر وأكل الخنزير، كل هذا يُظهره الشاعر في جو حزين متحسر على الإسلام وعزته، من خلال المقارنة بين ما كانت عليه هذه المقدسات وما آلت إليه، يقول أبو عمر بن المرابط:

¹ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص487.

² المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص487.

الكامل

أَتَعَزُّ مِنْ أَرْضِ الْعَدُوِّ مَدَائِنُ
وَاللَّهُ فِي أَقْطَارِهَا لَمْ يُعْبَدِ؟
وَتَذُلُ أَرْضُ الْمُسْلِمِينَ وَتُبْتَلَى
بِمِثْلَيْنِ سَطَوَا بِكُلِّ مُوحِدِ؟
كَمْ جَامِعٍ فِيهَا أُعِيدَ كَنِيسَةٌ؟
فَاهْلُكَ أَسَى وَلَا تَتَجَلَدِ
الْقَسُ وَالنَّاقُوسُ فَوْقَ مَنْارَةٍ
وَالخَمْرُ وَالخَنْزِيرُ وَسَطَ الْمَسْجِدِ!
أَسْفَا عَلَيْهَا أَفْفَرْتُ صَلَوَاتَهَا
مَنْ قَانَتَيْنِ وَرَاكِعَيْنِ وَسُجَّدِ1

ومن الشعراء الذين اعتمدوا على أسلوب المقارنة لوصف ما حدث للمقدسات الإسلامية شاعر مجهول رثى مدينة رندة، فقد ظهرت في القصيدة عاطفته الدينية الحزينة، وأظهرت تحسره على المقدسات والمساجد التي تحولت إلى كنائس، والمآذن التي عُطل الأذان فيها، والمحاريب التي تشكو أمرها للمناير، فعنصر المقارنة عند الشاعر خدم - كما خدم عند غيره من الشعراء- الشعور والحس الديني عندهم، فقربت للمتلقي مأساة الشاعر لتدفعه للتعاطف والاتحاد مع الشاعر في الشعور بعظم مصيبة الإسلام في الأندلس، يقول الشاعر المجهول:

الطويل

فَوَا حَسْرَتًا كَمْ مِنْ مَسَاجِدَ حَوْلَتْ؟
وَكَانَتْ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ شَطُورَهَا
وَوَا أَسْفَا كَمْ مِنْ صَوَامِعُ أُوحِشَتْ؟
وَقَدْ كَانَ مُعْتَادِ الْأَذَانِ يَزُورَهَا
مَحْرَابَهَا يَشْكُو لِمُنْبَرِهَا أَحْوَى
وَأَيَّاهَا تَشْكُو الْفِرَاقَ وَسُورَهَا 2

لقد عبر الشعراء ببساطة ويسر عن عاطفتهم الدينية التي تلونها المشاعر الإنسانية الفياضة، وهم يركزون حينهم على المقدسات الإسلامية لا سيما المساجد التي أصابها التغيير والتبديل على أيدي الأعداء المحتلين، والتي كانت مصدر ذكرياتهم في تلك الربوع التي استباحها الكفار.

¹ ابن خلدون: العبر، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، 1959م، ج7، ص409-414، وأرسلان شكيب: خلاصة تاريخ تاريخ الأندلس، ص81-83.

² أورد أرسلان، شكيب: الحلل السندسية، ج3 ص548، جزءا من هذه القصيدة؛ أورد عنان: نهاية الأندلس ص253-255) بعضا من هذه القصيدة؛ وأوردها كاملة خفاجة، محمد عبد المنعم: قصة الأدب في الأندلس، ج1، ص132-137.

"وبالجملة فالقصيدة من جيد ما رثيت به الأندلس بعد غروب شمسها، فهي على طولها لم تسئم القارئ لبراعة الشاعر في الانتقال من مجال إلى مجال آخر، داخل إطار الرثاء، ولئن خلت بعض الشيء من الصور المتخيلة فإنها كانت غنية بعواطفها وأحاسيسها الإنسانية"¹

وفي مشهد آخر يتكئ الشاعر ابن الأبار في التعبير عن تجربته الشعرية على التقاط مشاهدته الحزينة من عمق المأساة، فيرسم صوراً ومشاهد لمعالم الإسلام الحضارية في المدن المحتلة التي لحقها التشويه والتخريب على يد المعتدين الإسبانيين، فالمساجد أصبحت بيعاً، والمآذن أُبدلت بالأجراس، فيقول:

البيسط

يَا لِلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلَهَا جَزْرًا 2 لِلنَّائِبَاتِ وَأَمْسَى جِدُّهَا تَعْسَا
يَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَتْ لِلْعَدَا بَيْعًا وَلِلنَّادَاءِ غَدَا أَثْنَاءَهَا جَرَسًا 3

امتزجت في الأبيات العاطفة الدينية بالعاطفة الإنسانية، فقد انتقل الشاعر من الحديث الخاص إلى العام: أي من الحديث عن مدينة للحديث عن الأندلس عامة، واستخدم ألفاظاً وصوراً حزينة باكية، للتعبير عن حزنه ومشاعره، كما استخدم أسلوب المقابلة، الذي أدى دوراً مهماً في التعبير عن تجربة الشاعر النفسية، فأخذ يحشد المقارنات المتنوعة، بين دخول الشرك، وارتحال الإيمان، وبين الحزن والانكسار الذي أصاب الأندلس، وما يشعر به المعتدي من فرح وزهو، ويقارن ماتم الإسلام وأعراس النصر، بين المساجد في الإسلام وكيف تحولت إلى كنائس عند النصر، وبين أجراس الكنائس الذي استبدلت بندااء الأذان.

¹ الكفاوين، شاهر عوض: الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس، (رسالة دكتوراه)، جامعة أم القرى: مكة المكرمة، 1404هـ - 1984م، ص442.

² جزرا: مفردها جزور: ما يصلح لأن يذبح من الشاة، يقال: تركوها جزرا للسباع والطير أي قطعاً (ابن الأبار، محمد بن عبد الله: الديوان، تحقيق عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر: تونس، 1985م، ص396

³ المثاني: الآيات القرآنية تتلى وتتكسر، دُرسا: مفردها دارس أي دائر زائل. (ابن الأبار، محمد بن عبد الله: الديوان ، ص396.

الفصل الثالث

الدراسة الفنية

تقديم:

يقوم نجاح النص الشعري على الجوانب الفنية فيه، وما يحدثه في متلقيه حسبما يريد ناظمه، فالرثاء في الشعر الأندلسي يقوم على إرهاصات المكان وأحداثه، إذ شاهد الشاعر الأندلسي زوال مدينته ونهاية حكمه القوي، وهجرة أهله بل وقتلهم، فلا يجد سبيلاً آخر غير الشعر، ليكي ماضياً، أو يستجد ملكاً، أو يرثي مكاناً، فعناصر النص الأدبي تنتظم في عملية منهجية خاصة، بحيث تكون النص في شكله الجمالي، والحديث عن الموضوعات والأغراض لا يمكن أن يتم بعيداً عن العناصر الفنية أو بمعزل عنها؛ إذ عبر العرب قديماً عن هذا الارتباط بين الفكرة والجانب الفني، وتوصلوا إلى نتيجة مفادها أن الشاعر ينجح في طرح أفكاره ورؤاه، وتقديم نص جيد، إذا تمكن من تطويع أدوات التشكيل الشعري بالكيفية التي تضمن الجودة والتميز بعمله الإبداعي¹.

وانطلاقاً من هذه النتيجة، سنتناول أهم الجوانب الفنية التي ميزت شعر رثاء المدن الأندلسية في ظل التأثير الإسلامي، بدءاً باللغة، ومروراً بالأسلوب والصورة الفنية وبناء القصيدة والتناص. ويخلص صلاح فضل إلى أن قيمة كل عنصر بنائياً تكمن على وجه التحديد في كيفية اندماجه وتصاعده إلى ما يليه، فنكتسب بذلك الصيغ أهمية خاصة، يصبح تكرارها ليس مجرد توقيع موسيقي رتيب، بل هو إمعان في تكوين التشكيل التصويري للقصيدة ودعامة لمستوياتها، وما الكلمة إلا عنصر له درجته التكوينية ومدلوله الخاص².

¹ كريمة محمد: قضية اللفظ والمعنى في النقد العربي القديم، مجلة مركز دراسات الكوفة، العدد 38، 2015م، ص240-245

² ينظر: فضل، صلاح: إنتاج الدلالة الأدبية، الطبعة الأولى، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع: القاهرة، 1987، ص275.

اللغة:

تعد عنصراً أساسياً في العملية الإبداعية؛ لأنّ تحليل الخطاب لا يتم إلا بوساطة اللغة التي تتميز بالألفاظ ومشتقاتها وتركيبها وأساليبها، وبها يتمكن الباحث من الولوج إلى عالم النص من جهة، وعالم الشاعر من جهة أخرى.

فلغة الشعر "هي أفضل عنصر في صياغة القصيدة فهي تتبين جودة الأداء الشعري، وبها تتضح قوّة بنیان القصيدة وتماسكها، وتتشارك في هذا البناء مجموعة من العناصر التي تمكن اللغة من أداء وظيفتها في القصيدة على أكمل وجه"¹، فاللغة هي المادة الأولى التي يشكل منها الشاعر فنه، ويجسد من خلالها إبداعه فتكون اللغة أداة تبليغ وتأثير في آن واحد معاً².

لقد مثلت اللغة المستمدة من الاتجاه الإسلامي في شعر رثاء المدن الأندلسية مساحة واسعة صُبِغَتْ بنور الإسلام، وعبرت عن زمانها ومكانها بوضوح، فقد رصد لنا الجانب الإسلامي لغة شيقة سهلة قريبة إلى النفس، فكانت معينا لا ينضب، والتي لا تعدو أن تذكر المتلقي بالدين الإسلامي والتعلق به والذود عنه.

كانت هذه اللغة شاهداً صادقاً على إسلامية النص وتأثر المبدع بروح الإسلام، فكان الشاعر يقيس صلاح الناس وفسادها بمدى التزامهم بالدين، فنعت الخصوم، بالكفر والضلال، وأهل الشرك وعلى هذا يكشف المعجم اللغوي "أول ما يكشف عن حجم المؤثرات الإسلامية وقد تحولت إلى ظاهرة فنية تسود بين الشعراء، فتشمل شعر العصر كله بكثير من صورها وعمق ملامحها، فلم تفرق بين شاعر متدين وآخر رقيق العقيدة"³.

ولعله من البدهي أن يكون القرآن الكريم أول المصادر الإسلامية وأكثرها أثراً في ثقافة المبدع والمتلقي على حد سواء، إذ شكل مدرسة فنية على جميع المستويات التي تقاس بها جودة الأدب، وتقاس عليه فهو "مصدر التراث الديني وينبوع الفكر الإسلامي وقد كان - وما يزال - معيناً ثرياً

¹ عبيد، أحمد محمد علي: شعر قبيلة كلب حتى نهاية العصر الأموي، د. ط، أبو ظبي: الإمارات المتحدة، 1999م، ص 407 .

² ينظر: شراد، شلتاغ عبود: أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، ط1، دار المعرفة: دمشق، 1987م، ص 66 .

³ التطاوي، عبد الله: حركة الشعر في ظلال المؤثرات الإسلامية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع: القاهرة، ص 112 .

للفصاحة والبلاغة والبيان، ومورداً عذباً يسترشد منه الشعراء في كل زمان ومكان، ويفيد فيه لإنماء إبداعاتهم، وإضفاء الجمال الفني عليها، وتعميق الشعرية¹.

هذه القيمة الأدبية والفنية الكبيرة للقرآن جعلت المبدعين ينهلون من معينه الذي لا ينضب فتتلمذوا على أسلوبه الذي يعج بالمجازية وهو يعدُّ ملحمة مجازية وتصويرية؛ مما جعله مورداً عذباً للشعراء في بناء اللغة والصورة على مر العصور².

ولم يكن شعراء رثاء المدن الأندلسية بمنأى عن هذا المنهل العذب، فكثرت استخدامهم للألفاظ والتراكيب القرآنية التي جاءت في سياقات خاصة مما ساهم في تكثيف اللغة، وتشجيع المتلقي وإثارة رغبة الكشف والتأويل في نفسه³.

ألفاظ كثيرة التداول

استأنس الشعراء بالعديد من الألفاظ القرآنية أو التي أخذت طابعاً إسلامياً بحثاً واستعانوا بها في ترسيخ مبتغاهم، واستمدوا منها المصداقية العالية فحققوا جراء ذلك نجاحاً باهراً، ومن هذه الألفاظ: الله، الرسول، القرآن، وغيرها.

لفظ الجلالة

فقد تكرر لفظ الجلالة بصور متعددة تنبئ بمدى تعلق الشعراء به أو على الأقل مدى رسوخ هيبته الله في نفوسهم، واستشعارها معهم في شتى مناحي حياتهم، فابن شهيد في رثائه لقرطبة يقول:

الكامل

دَارَ أَقَالَ اللهُ عَنُورَةَ أَهْلَهَا فتبرروا وتَعَرَّوْا وَتَمَصَّرُوا 4

وابن حزم في رثائه لقرطبة يرد عنده ذكر لفظ الجلالة يقول:

الطويل

¹ الياسين، إبراهيم منصور محمد: استيحاء التراث الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين العصور 400-539هـ، د. ط، عمان: عالم الكتب الحديثة، 2006م، ص17.

² ينظر: بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني في القرآن الكريم، مصر، دار المعارف، 1977م، ينظر ص29.

³ ينظر: شزاد، شلتاغ عبود: أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، ص84.

⁴ الإلبيري، أبي إسحاق: الديوان، ص76.

وَلَكِنَّ أَفْدَارًا مِنْ اللَّهِ أَنْفَذْتَ تُدَمِّرُنَا طَوْعًا لَمَّا حَلَّ أَوْ قَهْرًا¹

فالشاعر يرد ما حل بالأندلس لقضاء الله وقدره، وهذه الأقدار نافذة فيهم طوعا أو قهرا، فقد أظهر الشاعر أحاسيسه تجاه الأندلس، وأظهر ثقافته الدينية ومشاعره الإسلامية.

وفي مسمطة ابن أبي الخصال في منادب قرطبة والزهراء يذكر لفظ الجلالة أكثر من مرة، يقول:

الطويل

أَفِي اللَّهِ أَمَّا كُلُّ بَعْدٍ فَتَأَيَّبَتْ وَأَمَّا دُنُو الدَّارِ مِنْهُمْ فَفَأَيَّبَتْ
وَلَا يَلْفَتْ الْبَيْنَ الْمُصَمَّمِ لَأَفَتْ وَيَا رَبَّ حَتَّى الْبَارِقِ الْمُتَهَافَتِ
عُرَابٌ بِتَفْرِيقِ الْأَحِبَّةِ يَنْعَبُ 2.

ويقول أيضا:

الطويل

حُدُوا بِدَمِي ذَاكَ الْوَمِيضَ الْمُضَرَّجَا وَرَوْضَا لِقَبْرِ الْعَاشِقَيْنِ تَأَرَّجَا
عَفَا اللَّهُ عَنْهُ قَائِلًا مَا تَحَرَّجَا تَمْشِي الرَّدَى فِي نَشْرِهِ وَتَدَرَّجَا
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لِلْمَنِيَّةِ مُرْهَبٌ 3.

ولم يقتصر ذكر لفظ الجلالة على هذين الموقعين في مسمطته؛ بل تكرر ست مرات في مواطن

مختلفة.

إن اهتمام الشعراء بذكر لفظ الجلالة دليل على التوجه الإسلامي للشاعر، وعلى أثر الثقافة الإسلامية في إبداعه، بل إن استخدام اللفظ أعطى النص مصداقية وجلالة، كما يؤكد أن المعركة في الأندلس معركة إسلامية بحتة على كل مسلم أن يهب للدفاع عنها.

وأبو إسحاق الإلبيري يورد لفظ الجلالة في رثائه لمدينة البيرة، مكررا في البيت نفسه، يقول:

الطويل

¹ التلمساني، لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، ص 107-108.
² الأصفهاني، عماد الدين: خريدة القصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، ج3، ص 453-459؛ ابن الخطيب، لسان الدين: الدين: الإحاطة، ج 2، ص 396-403؛ شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج3، ص 367-368.
³ الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، ج3، ص 453-459؛ ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة، ج 2، ص 396-403؛ شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج3، ص 367-368.

فَلِلَّهِ ثَاوِيهِمْ وَلِلَّهِ حَايُهُمْ فَكُلُّ جَوَادٍ بَاهِرُ الْفَضْلِ وَاهِب 1

وفي رثاء ابن الأبار لبلنسية نراه يستجد بصاحب إفريقية (أمير تونس) ويمدحه، بقول:

البيسط

وَقُمْتَ فِيهَا بِأَمْرِ اللَّهِ مُنْتَصِرًا كَالصَّارِمِ اهْتَزَّ أَوْ كَالْعَارِضِ انْبَجَسَا
قَدْ نَوَّرَ اللَّهُ بِالتَّقْوَى بَصِيرَتَهُ فَمَا يُيَالِي طُرُوقَ الْخَطْبِ مُلْتَبِسَا
مِنْ سَاطِعِ الثُّورِ صَاغَ اللَّهُ جَوْهَرَهُ وَصَانَ صِيغَتَهُ أَنْ تَقْرُبَ الدَّنَسَا 2

فابن الأبار يعدد صفات أمير تونس ويتحدث عن شجاعته وإقدامه، فهو لا يخشى المخاطر، ولا يتوانى عن مواجهة الأعداء والأهوال، وجاء الاعتراض بجملة "بأمر الله" مستخدماً ثقافته الدينية ليجعل منها دافعاً للأمير على تلبية طلبه، فهو يقول له: إنه مؤيد من الله تعالى، ويؤكد عليه أن الله سينصره، ثم يمدحه في البيت الثاني بقوله: إن الله قد أنار بصيرته بالتقوى، ولذلك فهو لا يخاف من المخاطر؛ بل ويقدم عليها بشجاعة وهو مبتسم، وفي البيت الثالث ما زال يمدح ويعلي شأنه ويمجد نسبه، وقد أسند الفعل صاغ الى لفظ الجلالة ليفيد ذلك في تشريف الممدوح وتعظيمه، فقد تولى سبحانه وتعالى هذا الأمر وفي ذلك كمال وعدم نقصان.

لقد استخدم ابن الأبار لفظ الجلالة وثقافته الدينية في مدح الأمير ليحدث الأثر في نفسه فيدفعه لنصرة الأندلس، فهذا الأسلوب يجعل الأمير يشعر بمسؤوليته الدينية تجاه الأندلس.

وفي رثاء مالك بن المرحل للأندلس والاستتجاد بالمجاهدين، يقول:

الرجز

وَاللَّهُ رَاضٍ عَنْهُ وَالْخَلْقُ لَهُ يَدْعُونَ مَهْمَا كَبَرُوا وَأَحْرَمُوا 3

فالشاعر يمدح المجاهد الذي يدافع عن الأندلس بأن الله راض عنه، وهذه الصفة تفيد التعظيم من شأن الممدوح، وفيها تأثر قرآني بالآية الكريمة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ

¹ الإلبيري، أبو اسحاق: الديوان، ص76.

² التلمساني، المقري: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج6، ص 200-204.

³ الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص98-100.

أَتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنِ رِضَى اللَّهِ عَنْهُمْ وَرِضْوَانَهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا¹ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ²، فرضى الله فوز عظيم يناله الإنسان، فالشاعر استخدم مخزونه الإسلامي في المدح، ليؤثر من خلالها في المجاهدين بدفعهم إلى نصرته الأندلس وتلبية طلب الشاعر. ولا يقف الشعراء عند حرفية هذه اللفظة (الله) بل ينتقل إلى أسماء الله الحسنى، وإلى ما ينبوع عنها في أحيان كثيرة، كلفظة مولانا، وإله، والرحمن وغيرها. ففي رثاء أبي المطرف بن عميرة لبنيسية يرد لفظة مولانا في قوله:

الطويل

فَنَشْكُرُ مَوْلَانَا وَنَعْلَمُ أَنَّهُ عَلَى ذَاكَ يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَيَغْفِرُ
جَزَى اللَّهُ عَنَّا سَيِّدًا فِي جَوَارِهِ ثَمَوُلٌ مُضَطَّرٌّ وَأَيْسَرٌ مُعْسِرٌ²

ويرد اسم الله الغني عند عمر بن المرابط فيقول:

الكامل

هَذِي الثَّغُورُ بِكُمْ أَيُّكُمْ تَشْتَكِي شَكْوَى الْعَدِيمِ إِلَى الْغِنَى الْأَوْجِدِ³

فالأندلس والأماكن تشكو إلى الله ما حل بها من مصاب جلل، فقد رفعها الشاعر إلى مرتبة الإنسان الذي يختص بالشكوى، وفي ذلك تجسيد، وهي تشكو إلى الله الغني.

لفظتنا الكفر والإسلام

إن الناظر إلى شعر رثاء المدن الأندلسية يلحظ من غير عناء ترداد كلمتي الكفر والإسلام، وما ينبوع عنهما في قصائد رثاء المدن، بل إن بعض القصائد تذكر الكلمات مرات عدة، وقد أراد الشعراء من تكرار هذه الكلمات أن يؤكدوا أن المعركة في الأندلس هي معركة على الإسلام، وهي امتداد لمعركة الكفر والإسلام منذ أن بعث سيدنا محمد عليه السلام.

وتكرار هذه الكلمات تدل على أن معركة الأندلس لا تخص الأندلسيين وحدهم، بل على كل مسلم أن يهب لنصرة الأندلس. فيقول ابن الأبار في رثاء مدينة بلنسية:

¹ سورة التوبة، آية 100.

² لم يرد هذان البيتان إلا في المرابط، أبو العلاء: زواهر الكفر وجواهر الفقر، السفر الثالث، مصور عن مخطوط الأسكوريال الأسكوريال رقم (520)، ورقة 78/77.

³ راجع هذه القصيدة: ابن خلدون: العبر، ج7، ص409-414؛ شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ص81-83.

البيسط

مَدَائِنُ حَلَّهَا الْإِشْرَاكُ مُبْتَسِماً جَذْلَانٌ وَارْتَحَلَ الْإِيمَانُ مُبْتَسِماً¹

يعقد الشاعر مقابلة بين الشرك والإيمان، ويصور حال الأندلس بعد أفول شمس الإسلام عنها، لقد كانت الأندلس في حال ازدهار، وأمان وهناء أيام الإسلام؛ ولكن هذه الحال تحولت إلى بؤس وعذاب بعد مجيء الكفار .

وكذلك استخدم ابن سهل المقارنات بين حال الإسلام وحال الكفر حين سيطر عليها فيقول:

الكامل

لَمْ يَبِقَ لِلْإِسْلَامِ غَيْرُ بَقِيَّةٍ قَدْ وَطَّئَتْ لِلْحَادِثِ الْمُتَنَكَّرِ
وَالْكَفْرُ مُمْتَدُّ الْمَطَالِعِ وَالْهُدَى مُتَمَسِّكٌ بِذِنَابِ عَيْشٍ أُغْبِرِ²

ولم يكن لفظ الكفر والإسلام هما ما استخدمه الشعراء فقط؛ بل استخدموا ما ينوب عنهما؛ فلفظ الإسلام استخدموا له ألفاظاً قريبة وتحمل المعنى نفسه كالدين والإيمان والتوحيد، أما الكفر فقد عبروا عنه بألفاظ مثل الشرك . فهذا ابن سهل يستخدم لفظة التوحيد بقوله:

الكامل

كَمْ أَبْطَلُوا سُنَنَ النَّبِيِّ وَعَطَّلُوا مِنْ حِلْيَةِ التَّوْحِيدِ ذُرْوَةَ مَنَابِرِ³

ففي البيت نرى العديد من الألفاظ التي تدل على مدى استخدام اللفظ الإسلامي في شعر رثاء المدن الأندلسية حيث اجتمعت ألفاظ (التوحيد، وسنن النبي، ومنبر) وهذا يدل على مقدار استخدام الشعراء للفظ الإسلامي وعلى ثقافة الشاعر الإسلامية، كما أن هذه الألفاظ تتناسب مع المعنى الذي يريد الشاعر إيصاله.

¹ التلمساني، المقري: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج6، ص 200-204.
204.

² الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية، ص69؛ ابن سهل: الديوان، تحقيق بطرس البستاني، البستاني، ص 162-163.

³ الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية، ص69؛ ابن سهل: الديوان، تحقيق بطرس البستاني البستاني، ص 162-163.

لقد ظهر شعراء رثاء المدن شديدي التأثير بقيم الدين ومعجمه، وشديدي الالتزام بمبادئه، وبهذا يظل الطابع الإسلامي بارزاً من خلال تلك العاطفة الدينية، وهي تعكس مشاعر المسلمين إزاء الأحداث الكبار من حولهم وتصورها.

الأسلوب

يعد تكرار بعض الأساليب في شعر رثاء المدن الأندلسية سمة أسلوبية، ترجع إلى حالة الشاعر النفسية والإحباط الذي كانوا عليه، ومن الأساليب التي تكررت عند الشعراء الاستفهام، والنفي والنداء، وسنعرض لكل أسلوب منها لبيان الأثر الفني لهذا الأسلوب في شعر رثاء المدن.

الاستفهام

إن نظرة سريعة إلى شعر رثاء المدن الأندلسية تعطي القارئ فكرة عن مدى حضور أسلوب الاستفهام في شعر رثاء المدن. فما الذي دفع بالشعراء إلى اعتماد هذا الأسلوب والإكثار منه؟ وما علاقته بالحالة النفسية للشاعر؟

لقد ورد الاستفهام عند أبي البقاء الرندي بصورة كبيرة في قصيدته النونية، فيقول:

البيسط

أَيَّنَ الْمُؤُوكُ ذُو النَّيْجَانِ مِنْ يُمِّنٍ وَأَيَّنَ مِنْهُمْ أَكَالِيْلٌ وَتِيْجَانِ؟
وَأَيَّنَ مَا شَادَهُ شَدَادٌ فِي إِرْمٍ وَأَيَّنَ مَا سَاسَهُ فِي الْفَرْسِ سَاسَانِ؟
وَأَيَّنَ مَا حَاَزَهُ قَارُونُ مِنْ ذَهَبٍ وَأَيَّنَ عَادٌ وَشَدَادٌ وَقَحْطَانِ؟¹

لقد جاء الاستفهام في قصيدة الرندي ليقدر قاعدة عظيمة وهي أن كل شيء لا بد أن يؤول إلى زوال، سواء أطل أم قصر، وهو يريد أن يواسي نفسه ويصيرها عما أصيب به أهل الأندلس، وإن كان الذي أصيب به الإسلام في الأندلس ليس له سلوان فمن ذا الذي يستطيع أن ينعي الإسلام وأهله؟ وهذا مما يبعث على الألم والحزن، فتكرار لفظ (أين) بهذه الصورة "يخيل إلينا عدم تناهي الأقسام، والعظماء المشهورين في التاريخ، والذين قضوا، وقضي معهم كل عملهم الذي شادوه، فبقوا خيرا ترويه الكتب وقصصاً أشبه بأحلام الكرى وذلك لأن كل شيء إلى نهاية، وكل كائن إلى زوال"² كما أن أسلوب

¹ الفاسي، علي بن أبي زرع: النخيرة السينة، ص 112-114.

² الزيات، عبد الله محمد: رثاء المدن في الشعر الأندلسي، ط1، جامعة قاريونس: بنغازي، 1990م، ص 543.

التكرار " يحمل المخاطب على التدبر والتعقل لاستنتاج العبرة والعظة من مصير هؤلاء الأقبام السابقة"¹.

وقد تكرر الاستفهام في قصيدة الرندي مرة أخرى في مجموعة من الأبيات حملت العديد من الاستفهامات كقوله:

البيسط

دهى الجَزيرةَ أمرٌ لا عَزاءَ لَهُ	هَوَى لَهُ أَحَدٌ وَأَنهَدَّ تَهْلانُ
فاسألْ بِلنْسِيَةٍ ما شَأْنُ مرسِيَةٍ	وَأَيْنَ شاطِبَةٌ أمْ أَيْنَ جِيانُ
وَأَيْنَ قُرْطُبَةٌ دارُ العُلومِ فَكَم	مِنَ عالِمٍ قَد سَمّا فِيها لَهُ شَأْنُ
وَأَيْنَ حمصُ وما تَحويهِ مِنْ نُزهِ	وَتَهْرُها العَذْبُ فَيَاضٌ وَمَلائُ
قَواعِدُ كُنَّ أركانَ البِلادِ فَمَما	عَسى البَقاءُ إِذا لَم تَبقَ أركانُ ²

يرجع شيوع أسلوب الاستفهام في قوله: ما شأن مرسته؟ وأين شاطبة؟ أم أين جيان؟، وأين قرطبة دار العلوم؟، وأين حمص وما تحويه من نزه؟، إلى التعجب والأسف على ضياع هذه البلاد، وعلى حالها، وهو استفهام لاستعظام أمر ظاهر، يراد به المبالغة في إظهار التعجب والتحسر والألم مما يحدث .

وتكرار مثل هذه التساؤلات يفيد في الدلالة على حجم الخراب الذي لحق بالمدينة ، وكأن السنوات الجميلة التي عاش فيها سكانها قد انقضت بسرعة.

يمكننا القول إن شيوع الاستفهام في هذه القصائد فيه شيء من السير على النهج القرآني الذي شاع فيه الاستفهام، وخاصة في الحديث عن الأمم السابقة، حيث يقول تعالى: ﴿الْمُتَرَكِّفَ فَعَلْ رَبُّكَ بِعَادِ ﴿٣﴾ ، وكذلك قوله تعالى في سورة الفيل: ﴿الْمُتَرَكِّفَ فَعَلْ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿٤﴾ .

ومن الشعراء الذين استخدموا الاستفهام أسلوباً في قصائد رثائهم الشاعر أبو اسحاق الإلبيري في رثائه لمدينة البيرة، فيقول:

¹ نصري، تسنيم: التفاعل بين النص والتلقي (الإيقاع البيدي في نونية الرندي نموذجاً)، اتحاد الكتاب العرب، مجلة التراث التراث العربي: دمشق، العددان 132-133، 2014م، ص121.

² الفاسي، علي بن أبي زرع: النخيرة السنوية، ص112-114.

³ سورة الفجر، آية 6.

⁴ سورة الفيل، آية 1.

الطويل

وَكَمْ مِنْ مُجِيبٍ كَانَ فِيهَا لِصَارِحٍ
وَكَمْ مِنْ نَجِيبٍ أَنْجَبْتَهُ وَعَالِمٍ
وَكَمْ بَلَغَتْ فِيهَا الْأَمَانِي وَفُضِّيتِ
وَكَمْ طَلَعَتْ مِنْهَا الشُّمُوسُ وَكَمْ مَشَّتْ
وَكَمْ فَرَسَتْ فِيهَا الطِّبَاءُ ضَرَاغِمًا
وَكَمْ صَرَعَتْ فِيهَا الْكُفَاةُ كَوَاعِبُ¹

لقد جمع الشاعر سيلاً من الاستفهامات بكم الخبرية التي تفيد الكثرة، يريد بذلك إيصال رسالة واضحة عن حال الأندلس أيام الإسلام، وما حل بها بعد رحيل الإسلام عنها، لقد جاء الاستفهام ليقر القاعدة التي أراد الشاعر أن يصل لها والتي أقرها في الأبيات بعد الاستفهام فيقول:

الطويل

لَعَهْدِي بِهَا مُبِيضَةَ اللَّيْلِ فَاعْتَدَتْ
وَمَا كَانَ فِيهَا غَيْرُ بُشْرَى وَأَنْعَمٍ
وَأَيَّامُهَا قَدْ سَوَّدَتْهَا النَّوَائِبُ
فَلَمْ يَبْقَ فِيهَا الْآنَ إِلَّا الْمَصَائِبُ²

هذه هي النتيجة والقاعدة التي أراد الألبيري أن يقرها في الأبيات وهي مقدار المصيبة والفاجعة في الأندلس، فورد الاستفهام ليدلل على كثرة العز الذي كانت عليه الأندلس، فهو يدل على كثرة المصائب التي حلت بها. لقد أفاد الاستفهام في تقرير القاعدة وتوضيح المعنى ليصل الشاعر به إلى ما أراد من تصوير لفاجعة الأندلس.

وابن العسال في رثاء مدينة بريشتر يستخدم هذا الأسلوب ويكرره في قصيدته يقول:

الكامل

كَمْ مَوْضِعٍ غَنِمُوهُ لَمْ يُرْحَمْ بِهِ
وَلَكُمْ رَضِيْعٌ قَرَّفُوا مِنْ أُمَّه
طِفْلٌ وَلَا شَيْخٌ وَلَا عَذْرَاءُ؟
فَلَهُ إِلَيْهَا ضَجَّةٌ وَبُعَاءُ³

¹ الألبيري، أبو إسحاق: الديوان، ص76.

² الألبيري، أبو إسحاق: الديوان، ص76.

³ الحميري: صفة جزيرة الأندلس (مقتطفة من الروض المعطار)، ص40-41؛ أرسلان، شكيب: الحلل السندسية، ج3، ص541، ط1939م.

فكم الخبرية تدل على الكثرة وبهذا يريد الشاعر أن يخبر المتلقي أن حجم الدمار والقتل في الأندلس كان كبيراً.

القسم

ومن الأساليب التي كثر استخدامها عند شعراء رثاء المدن الأندلسية أسلوب القسم؛ لأنه يدل دلالة واضحة على صدق الإيمان بالعقيدة وصدق الاندفاع إلى ساحة المعركة، وجاء القسم متأثراً بالمعاني الإسلامية والألفاظ القرآنية. ومن أمثلة ذلك ما ورد عند أبي موسى هارون بن هارون في رثائه لمدينة إشبيلية فيقول:

البيسط

أَقْسَمْتُ فِي حَلْفِي بِاللَّهِ مُجْتَهِداً وَحَسْبُ ذِي حَلْفٍ بَرٌّ بِمَا قَسَمَا 1

فالشاعر يقر بأنه يجتهد في قسمه وهو يقسم بالله ويدعو إلى أن يبر كل من يقسم بقسمه .

وفي رثاء شاعر مجهول لغرناطة والأندلس ومأساة المنصرين يقول:

الطويل

فَبِاللَّهِ يَا مَوْلَايَ حُتُّوا بِفَضْلِكُمْ عَلَيْنَا بَرَّايَ أَوْ كَلَامٍ بِحُجَّةِ

فَأَنْتُمْ أَوْلُوا الْأَفْضَالَ وَالْمَجْدِ وَالْعَلَا وَغَوْتُ عِبَادِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ 2

فالشاعر يمدح السلطان أبا يزيد العثماني ويطلب منه النجدة والنصرة ويستحلفه بالله أن يقدم لهم يد العون فالقسم هنا خرج من معناه الحقيقي إلى معنى آخر وهو الرجاء والتمني.

وفي رثاء أبي العباس الدقون لغرناطة والأندلس يقول:

¹ ابن عذاري: البيان المغرب، تحقيق مرندا وابن تاوين، ج3، ص382.

² وردت القصيدة في المقرئ، أحمد بن محمد التلمساني: أزهار الرياض، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ج1، ص108-

البيسط

تَا اللهُ لَا زَالَ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ أَسْفٍ وَلَوْ أَكُونُ حَلِيفَ الْمُنْزَلِ الْخَالِي
أَوْ يَفْتَحُ اللهُ فِي نَصْرِ يَمُنُّ بِهِ فَاللهِ بَاقٍ يَقِي مَنْ كُلُّ مُحْتَالِ 1

لقد هال الشاعر ما حدث للأندلس فيرثي أهلها ويعدد مناقبهم، ويظهر تحسره وتفجعه عليهم، ثم يقسم بلفظ الجلالة مسبقاً بحرف التاء (تالله) ليؤكد أن القلب ما عاد يحتل الذي حل بالأندلس؛ فقلبه مليء بالأسف على حال الأندلس فلا يوجد من يدافع عنها وينصرها، وهذا الأسف لا يزيله إلا النصر من الله تعالى.

الصورة الشعرية الفنية

تعد الصورة من الموضوعات الفنية التي أفرد لها النقاد حيزاً واضحاً في بحوثهم ودراساتهم، كما أدرك الأدباء والشعراء مكانتها في العمل الأدبي شعره ونثره.

إن الصورة الفنية هي "حصيلة ما تكون من أفكار ذهنية محددة، يريد المتكلم أن يخرجها من هذا الواقع الذهني إلى الواقع المادي، والناس شركاء في هذه الصفة إلا أن الشعراء يتميزون عن بقية الناس بقدرة ذهنية من نوع خاص، ولذلك يكون تعبيرهم مميزاً لما يحتوي من صياغة محكمة ومتماسكة تصل حد التأثير"².

فالصورة هي وسيلة الشعراء والأدباء والفنانين لنقل أفكارهم وعواطفهم من العالم الخفي إلى واقع الوجود، كما أن الصورة هي وسيلة في يد الناقد أيضاً، حيث يستكشف بها مواقف الشعراء وتجاربهم، ومدى الأصالة الفنية التي يتمتعون بها، وبيان أساليبهم المستخدمة في التصوير، والتعبير الحاصل من طرف المتكلم. "وربما كانت القصيدة عند النقاد مجموعة من الصور"³.

"وهناك من يرى أن الوسائل التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرائه وسامعيه تدعى الصورة الأدبية، أو الصورة الفنية"⁴.

¹ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: أزهار الرياض، ج1، ص104.

² زرقان: عزوز: الصورة الفنية في الشعر الاستصرافي الأندلسي الصورة الاستعارية نموذجاً، مجلة الأثر، العدد14، جوان 2012، ص58.

³ الدخيلي، حسين علي: البنية الفنية لشعر الفتوحات الإسلامية في عصر صدر الإسلام، ط1، دار الحامد للنشر والتوزيع: عمان، 2011م، ص83.

⁴ غريب، روز: تمهيد في النقد الأدبي، بيروت، دار المكشوف، 1977م، ص242.

لأن الصورة تقوم بنقل ما يحسه الشاعر من انفعال، واضطراب عاطفي، وهيجان روحي، واشتراك السامع بهذا الاضطراب والانفعال بأسلوب فني مؤثر قادر على هذا الائتلاف، والمشاركة العاطفية والوجدانية¹.

وعليه فإن وظيفة الصورة الشعرية إيصال المعنى للمتلقى، وتمكينه منه، وهذا ما يؤكد زكي مبارك بقوله: "إن فضل الصورة الشعرية هو تمكين المعنى في النفس، وإن غاية الكلام البليغ من نثر أو شعر إنما هو التأثير، وهو يريد بالصورة الشعرية هنا معناها الآخر الذي هو الصياغة الشعرية"².

ويبدو أن الشعر الذي نحن بصدد الحديث عنه قد اهتم شعراؤه بالصورة الفنية فيه فضمونها أشعارهم، فظهرت عندهم الصورة اللغوية المجردة، والصورة التشبيهية، كما أولوا اهتماماً للصورة الاستعارية؛ فجعلوا منها وسيلة أكثر رقياً، وأقدر على التعبير من التشبيه ومن اللغة المجردة، واعتمدوا عليها في رسم كثير من الصور لمأساتهم ومعاناتهم. و من هؤلاء نجد مالك بن المرحل في قصيدته التي يستنجد فيها للأندلس حين قال:

الرجز

اسْتَنْصَرَ الدِّينَ بِكُمْ فَأَقْدِمُوا وَأَسْرَجُوا لِنَصْرِهِ وَأَلْجُمُوا
لَا تُسْلِمُوا الْإِسْلَامَ يَا إِخْوَانَنَا فَإِنَّهُ إِنْ تُسْلِمُوهُ يُسْلِمَ
لَأَدَّتْ بِكُمْ أَنْدَلُسُ نَاشِدَةً بِرَحِمِ الدِّينِ وَنِعْمَ الرَّحِمِ 3

فقد اعتمد الشاعر على التشخيص " الذي ترتفع فيه الأشياء إلى مرتبة الإنسان مستعيرة صفاته ومشاعره"⁴، حيث تحولت الأندلس معه إلى كائن حي، وهي في غالب الأحيان إنسان يصارع من أجل أجل البقاء.

¹ الدخيلي، حسين علي: البنية الفنية لشعر الفتوحات الإسلامية في عصر صدر الإسلام، ص83.

² مبارك، زكي: الموازنة بين الشعراء، ط3، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1926م، ص60.

³ الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المدنية، ص98؛ و كنون، عبد الله: ذكريات مشاهير، حال المغرب مالك بن المرحل، منشورات معهد مولاي الحسن مطبعة كريما دس تطوان، ص28.

⁴ ابن سلامة، الربيعي: أدب المحنة في الإسلام في الأندلس، (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة الجزائر: الجزائر، ص374.

وقد اعتمد ابن المرحل في هذا التشخيص طائفة من الاستعارات، أعطته قدرة فائقة للتعبير عن مشاعره وأحاسيسه وكذلك أحاسيس الأندلسيين، وذلك من خلال تصويره للأندلس، التي صارت كالإنسان تماماً، لتعطي عاطفة الشاعر مجالاً أوسع فالأندلس تستنجد وتصرخ وتسترحم وهذه كلها مواصفات إنسان موجوع يطلب الرحمة والعطف .
ويرثي ابن سهل إشبيلية بقوله:

الكامل

نَادَى الْجِهَادُ بِكُمْ بِنَصِيرِ مَضْمَرٍ يَبْدُو لَكُمْ بَيْنَ الْفَنَاءِ وَالضُّمَرِ
خَلَّوْا الدِّيَارَ لِدَارِ عِرِّ، وَارْكَبُوا غُبَرَ الْفَجَاحِ إِلَى النَّعِيمِ الْأَخْضَرِ 1

لجأ الشاعر إلى عنصر التشخيص المبني على الاستعارة فقد اعتمده للتعبير عن معاناة الأندلسيين، وعمّا حلّ بالإسلام فيها، ونلاحظ آثار الاستعارة في قوله: " نادي الجهاد بكم" فهذه الاستعارات حملت في طياتها رؤية شاعرية انفعالية؛ إذ جعل الجهاد إنساناً ينادي ويطلب النصره.
وينوع ابن سهل بين التشخيص والتجسيد والتجسيم، فيقول:

الكامل

أَنْتُمْ أَحَقُّ بِنَصْرِ دِينِ نَبِيِّكُمْ وَبِكُمْ تَمَهَّدَ فِي قَدِيمِ الْأَعْصُرِ
أَضْحَى الْهُدَى يَشْكُو الظَّمَا وَلَأَنْتُمْ ظِلٌّ وَرِيٌّ كَالزَّرِيعِ الْمُطِيرِ
الدينُ نَادَاكُمْ وَفَوْقَ سُورِجِكُمْ غَوْتُ الصَّرِيخِ وَبُغْيَةُ الْمُسْتَنْصِرِ
لَمْ يَبِقَ لِلْإِسْلَامِ غَيْرُ بَقِيَّةٍ قَدْ وَطَّئَتْ لِلْحَادِثِ الْمُتَنَكَّرِ
وَالْكَفْرُ مُمْتَدُّ الْمَطَالِعِ وَالْهُدَى مُتَمَسِّكٌ بِذِنَابِ عَيْشٍ أَغْبَرِ 2

فالشاعر في التعبير عن معاناته يعتمد على الاستعارات التي نوع فيها بين التجسيد الذي يعني تقديم المعنى في جسد شيء أو نقل المعنى في نطاق المفاهيم إلى المادية المحسوسة³. والتجسيم

¹ - الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص69؛ الإسرائيلي، ابن سهل: الديوان، ص162-163.

² الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص69؛ الإسرائيلي، ابن سهل: الديوان، ص162-163.

³ ينظر: ابن سلامة، الربيعي: أدب المحنة في الإسلام في الأندلس، ص374.

الذي يسعى الشاعر إلى إيصال المعنى المجرد مرتبة الإنسان في قدرته واقتداره¹. فالتجسيد كان في
في جعله الإسلام بناءً، وبنائاً هم العرب، وكذلك في جعله الهدى يظماً ويشكو العطش وهي من
صفات الكائن الحي.

أما التجسيم فهو في جعله الهدى متمسكا بذناب عيش أغبر، فقد نقل شيئاً معنوياً وجعله في
مرتبة الإنسان، وكذلك جعل الإسلام إنساناً يمشي على قدمين، فهو قادر على التحرك، فهو نقل
الإسلام من عقيدة وأفكار إلى واقع يصور معاناة الشاعر والأندلسيين.

ومن الشعراء الذين اعتمدوا على الاستعارة أبو البقاء الرندي في قصيدته الشهيرة " لكل شيء إذا
ما تم نقصان" فيقول في بعض أبياتها:

البيسط

يُمَزَّقُ الدَّهْرُ حَتْمًا كُلَّ سَابِعَةٍ	إِذَا نَبَتَ مَشْرِفِيَّاتٌ وَخِرْصَانُ
تَبْكِي الحَنِيفِيَّةُ البَيْضَاءُ مِنْ أَسْفٍ	كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الإِلفِ هَيْمَانُ ²
حَتَّى المَحَارِبُ تَبْكِي وَهِيَ جَامِدَةٌ	حَتَّى المَنَابِرُ تَبْكِي وَهِيَ عِيدَانُ
يَا غَافِلًا وَلَهُ فِي الدَّهْرِ مَوْعِظَةٌ	إِنْ كُنْتَ فِي سَنَةٍ فَالدَّهْرُ يَقْطَانُ ³

لقد اعتمد أبو البقاء الرندي على الاستعارة وبخاصة المكنية، فالدهر يُمَزَّقُ والحنيفية تبكي،
والمحاريب تنوح والمناير ترثي، والدهر يقطان، أشياء معنوية وأخرى جامدة صبغها بالحركة والحيوية،
واستطاع من خلالها التعبير عن مشاعره التي هي مشاعر كل أندلسي، فهذه الصور والاستعارات
عبرت بعمق عن ما حل بالأندلس، وكيف أثر ذلك على البلاد والعباد والمعتقدات، فحتى الجمادات
تشارك في هذا المصاب الجلل، وتتأثر بما يحدث حتى تظهر أصوات النحيب والوعويل منها، لقد
شخص الشاعر المعاني والجمادات فوصل إلى مراده في التأثير بالمتلقي وتفاعله مع الشاعر .

ومن هنا نصل إلى أن دور الصورة ليس مقتصرًا فقط على التشخيص والتجسيم، بل تعداه ليحدث
دقة ووضوحاً في تعبير الشاعر عن أحاسيسه، وامتد دورها ليشمل الجماد والأشياء المجردة.

¹ المصدر السابق، ص374.

² ورد هذا الشطر في الذخيرة كالتالي: كما بكت لرسول الله أجفان .

³ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس، ج 4 ص486،
والمقري، أحمد بن محمد التلمساني: أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق الأبياري، والسقا وشبلي، ج1، ص47،
والفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية، ص112-114.

فكانت الصورة باعثة على الحياة، وموحية بفكرة الشاعر، مع عمق الصورة، وتدققها، وكما تجلب فيها وضوح المواقف والأحاسيس عند شعراء رثاء المدن، فالصور كما وجدنا عندهم تمتاز بالحركة والحيوية، تحمل رؤية شعرية عميقة ومميزة، فالشعراء يرصدون ما لديهم من ملكات وحواس؛ ليقدموا للمتلقي صورة الواقع، حيث الحرب الطاحنة وما ينتج عنها من قتل وتدمير، وذلك كله كان من خلال توظيفهم للموروث الديني فيثيرون في المتلقي الحماسة، كما يثيرون فيه الحزن والأسى.

فكانت صورهم قوية التأثير واضحة في إيصال الفكرة والتأثير في المتلقي وتفاعله مع الشاعر ومع أهل الأندلس جميعاً.

بناء القصيدة

سار شعراء الأندلس في بناء قصائدهم على النهج التقليدي المتعارف عليه في الشعر العربي في المشرق، فقد اشتملت القصائد على عناصر البناء وهي: المطلع والمقدمة والمضمون وحسن التخلص والخاتمة¹.

واهتم الشعراء بمطالع قصائدهم، فهي التي يقع عليها تهيئة المتلقي وتشويقه، واستمالاته مما يؤدي إلى إقناعه بالأفكار الواردة في القصيدة، لذا اهتم الشعراء والنقاد بما يسمى بـ "حسن الابتداء"² أو "براعة الاستهلاك"³.

بل إن البعض يصف مطلع القصيدة ومقدمتها بالمغناطيس الذي يجذب المتلقي للنص، فهي الانطباع الأول الذي يدفع المتلقي للإصغاء حتى آخر كلمة⁴.

وقد اهتم النقاد بمطالع القصائد وأولوها عناية خاصة، ومنهم ابن رشيق القيرواني الذي يرى أن حسن الافتتاح في القصيدة داعية الانتشاح ومطية النجاح⁵.

¹ هلال، محمد غنيمي: النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 1977م، ص 202.

² الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر بن عبد الله: تسهيل السبيل إلى تعليم الترسيل بتمثيل المماثلات وتصنيف المخاطبات، مخطوط، الجامعة الأردنية مركز الوثائق والمخطوطات، رقم الشريط 650، ص 17.

³ ابن مالك الأندلسي، بدر الدين أبو عبد الله محمد بن جمال الدين: المصباح في علم المعاني والبديع، المطبعة الخيرية: القاهرة، 1341هـ، ص 124.

⁴ ينظر: ناجي، مجيد عبد الحميد: الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع: بيروت، 1984، ص 90-91.

⁵ ينظر: ابن رشيق، أبو الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد قمرزان، الطبعة الأولى، دار المعرفة: بيروت، 1988م، ص 387-388.

فالمطلع أول ما يدخل السمع، وبه يُعرّف ما عند الشاعر¹؛ فالشعر قفل أوله مفتاحه وبه يستدل على على ما عند الشاعر²، لذا يجب أن يبتعد الشاعر عن التعقيد في الابتداء، لأنه أول ما يعيه المتلقي ويفهمه³.

أما حازم القرطاجني فيرى المطلع بأنه الطليعة "تزيد النفس بحسنها ابتهاجاً ونشاطاً لتلقي ما بعدها"⁴. وقد اهتم الشعراء بملاءمة قصائدهم ومقدماتها لأغراض قصائدهم ولحال الخطاب - أيضاً- أيضاً- من حيث الجو النفسي للمخاطبين⁵.

وفي دراستنا لشعر رثاء الأندلس يجدر بنا أن نتساءل هل كانت مقدمات قصائد رثاء المدن الأندلسية مقدمات ظللية أم غزلية؟ أم كانت مناسبة للمحتوى والمضمون الذي انتثر في أبياتها، وظهر على أوزانها وقوافيها؟

اهتم شعراء رثاء المدن بالمطلع، وحاولوا في مراتبهم أن يلائموا بين المطلع والمضمون، ويقدموا مراتبهم بما يحسن أن يقدم به الرثاء، وإن نظرة فاحصة في مقدمات قصائد رثاء المدن الأندلسية في هذه الدراسة تخبرنا أن المقدمات جاءت ملائمة لموضوعها الذي يناسبه الاستهلال بالبكاء، ويناسبه الابتداء بالحكمة والاعتبار بالأمم السابقة والقرون السالفة، كما يناسبه الحض على الجهاد أو مدح الشخص الذي يطلب منه النجدة.

كانت المطالع الفلسفية الحكيمة من المطالع التي افتتح الشعراء الأندلسيون قصائد رثاء المدن بها؛ فقد درجوا أن يستهلوا مراتبهم بفلسفة عامة تعتمد على النغمة الحزينة، وهي تنصب في الأغلب على ذكر الموت والفناء⁶.

وأكد ابن رشيق القيرواني "أن من عادة القدماء أن يضربوا الأمثلة في المراثي، بالملوك الأعزة والأمم السابقة"⁷.

¹ ينظر: ابن رشيق، ابو الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج1، ص 387 و 388.

² ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص 388.

³ ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص391.

⁴ القرطاجني، حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ط3، تحقيق: محمد الحبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي: بيروت، 1986م، ص309.

⁵ ينظر: ناجي، مجيد عبد الحميد، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ص96-98.

⁶ ينظر: فريوس، حسين يوسف: دراسة الجانب الفني في المراثية الأندلسية، المعرفة(216)، 1980م، ص100.

⁷ ابن رشيق، القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج2، ص810.

ومن أهم الشعراء الذين تميزوا ببدايات فلسفية حكمية تُظهر النظرة العميقة للحياة، "أبو البقاء الرندي" في رثائته المشهورة التي تبين أن نعيم الدنيا زائل ولا يركن إليها يقول:

البيسط

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ فَلَا يُعْزِرُ بِطَيْبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُهَا دُولُ مَنْ سَرَّهَ زَمَنَ سَاعَتَهُ أَمَانُ
وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانُ
يُمَزَّقُ الدَّهْرُ حَتْمًا كُلَّ سَابِغَةٍ إِذَا نَبَتَ مَشْرِفَاتٍ وَخِرْصَانُ¹

فأبو البقاء الرندي فيما سبق يستهل رثاءه مظهرًا تجلداً مرده فناء الدنيا، وأن البقاء لله وحده، فهذه الدار لا تُبقي على أحد، ويظهر أن الشاعر يُعزي نفسه ويقنع نفسه أن الامور لا تدوم لأحد؛ فكل شيء مصيره الزوال، وهذه الدنيا دار فناء لا دار بقاء، وفي هذا يظهر الشاعر متدنياً مؤمناً بقضاء الله وقدره، ولعل الرندي اختار هذه المقدمة " لمناسبتها للرثاء فبيان زوال الحضارات السابقة وحكامها متوافق ووصف حال قرطبة وإشبيلية وغيرها التي أزيل عنها ما يدل على حضارتها وهويتها الإسلامية، فكأن لم يكن فيها مسلمون ولا إسلام، ولعل الرندي أراد أن يستوعب الأندلسيون أنفسهم هذه المصيبة؛ لأن تغير الأحوال سنة من سنن الله في الأرض"²

فيما بدأ بعض الشعراء قصائدهم في رثاء المدن بالبكاء على الأندلس، كإبراهيم بن خلف بن فرقد الذي يقول في مطلع قصيدة له في رثاء الأندلس:

المتقارب

ألا مسعدٌ منجزٌ ذو فطن ييكى بدمعٍ معينٍ هتن
جزيرةٌ أندلسٍ حسرةٌ لا غالبٌ من حقودِ الزمن
ويندبُ أطلالها أسفاً ويرثى من الشعرِ ما قد وهن

¹ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ج4 ص486؛ المقري، المقري، أحمد بن محمد التلمساني: أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق الأبياري، والسقا وشبلي، ج1، ص47؛ الفاسي، علي بن أبي زرع: الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص112-114.

² العبد اللات، فاطمة مفلح مرشد: شعر الرثاء في الأندلس في ظل بني الأحمر، (رسالة ماجستير)، الجامعة الأردنية: الأردن، 2002م، ص150.

وبيكي الأيام وبيكي اليتامى
وكذلك الشاعر ابن حزم في رثاء قرطبة يقول:

ويحكي الحمام ذوات الشجن¹

الطويل

سَلَامَ عَلَي دَارِ رَحَلْنَا وَغُودِرْتِ
تَرَاهَا كَأَنَّ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ بَلَقَعَا
فِيَا دَارَ لَمْ يُفْفِرْكَ مِمَّا اخْتِيَارْنَا
وَلَكِنْ أَقْدَارًا مِنَ اللَّهِ أَنْفَذَتْ
خَلَاءَ مِنَ الْأَهْلِيْنَ مُوحِشَةً قَفْرَا
وَلَا عَمَّرْتِ مِنْ أَهْلِهَا قَبْلَنَا دَهْرَا
وَلَوْ أَنَّ نَسْتَطِيعُ كُنْتِ لَنَا قَبْرَا
تُدْمِرُنَا طَوْعًا لِمَا حَلَّ أَوْ قَهْرَا²

فالشاعر يرسل السلام على ديار كانت عامرة بالحياة، وتحولت إلى دار خالية لا حياة فيها.

وكذلك ابن شهيد في رثائه لقرطبة يقول:

الكامل

مَا فِي الطُّلُولِ مِنَ الْأَحْبَةِ مُخْبِرُ
لَا تَسْأَلَنَّ سِوَى الْفِرَاقِ فَإِنَّهُ
جَارَ الزَّمَانِ عَلَيْهِمْ فَتَقَرَّقُوا
فَمَنْ الَّذِي عَنْ حَالِهَا نَسْتَخْبِرُ
يُنْبِيكَ عَنْهُمْ أَنْجِدُوا أَمْ أَغْوَرُوا
فِي كُلِّ نَاجِيَةٍ وَبَادَ الْأَكْثَرُ³

"واللافت للنظر في هذه القصيدة هو الحيرة التساؤل للذان بدأ بهما ابن شهيد مرثاته، وهذا الحشد

الهائل من ألفاظ الفراق، والجور، والخطوب، والتغيير، والبكاء، والتفطر، والحيرة، كل هذه الألفاظ التي شكلت حلقة حزن وألم جمعها ابن شهيد في الأبيات الأولى، ولسان حاله يقول: انظروا إلى الدمار، والخراب الذي خلفته الفتنة البربرية"⁴ فالشاعر يقف باكياً على آثار تلك البلاد الجميلة التي تدمرت، ويتساءل كيف سنعرف أخبارها فالزمان قد جار عليها.

أما سينية ابن الأبار فقد كان الابتداء فيها بالاستغاثة والاستتجاد بالأمير من أجل مد يد العون

للأندلس، فيقول:

¹ الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص374.

² ابن الخطيب، لسان الدين: أعمال الاعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، ص 107-108.

³ ابن شهيد: الديوان، ص 109.

⁴ قاسم، فدوى عبد الرحيم: الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة النجاح الوطنية: نابلس، 1431هـ - 2010م، ص189.

البيسط

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدُلْسَا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مُنْجَاتِهَا دَرَسَا
وَحَاشَ مِمَّا تُعَانِيهِ حَشَاشَتُهَا فَطَالَمَا ذَاقَتِ الْبَلَوَى صَبَاحَ مَسَا
صِلْ حَبْلَهَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الرَّحِيمُ فَمَا أَبْقَى الْمِرَاسُ لَهَا حَبْلًا وَلَا مَرَسَا¹

لقد استهل الشاعر قصيدته بفعل الأمر "أدرك" الذي خرج عن معنى الأمر إلى معنى الاستغاثة وطلب النجدة، فهو يحاول لفت نظر الأمير لتقديم العون للأندلس، فالأمر أدرك مقصود به حمل الأمير على العمل في سبيل الدفاع عن المدن الإسلامية ونصرتها.

يقول الطاهر مكي: "حتمَّ موضوع القصيدة ألا تكون كالمراثي السابقة، فأولئك سيكون فحسب، أما هو فيبكي ويستنجد، ومن ثم بدأها بدعوة حارة للأمير الحفصي أن يدرك الأندلس بجيوشه، وأن يعينه على النصر في معركته، وأن ينقذ دولة الإسلام مما تعاني من اعتداء عليها"².
لقد أحسن الشاعر ووفق في "براعة الاستهلال حيث مطلع الكلام دال على غرض المتكلم، فأحسن البدايات ما ناسب المقصود منها كما هو هنا"³.

التناص

مصطلح التناص من المصطلحات الغربية الحديثة، وله مكانه خاصة في الأدب والنقد الغربيين، وأول من ابتكر مصطلح التناص الباحثة البلغارية جوليا كريستيفال، وهي من أصول فرنسية.

ظهر مفهوم التناص بصورته الأولى في كتابات (ميخائيل باختين) عن (دستوي فسكي)، ولكن دون تحديد دقيق له، إذ تحدث عن (المبدأ الحوارية) ورأى أنه من مكونات النصوص الأدبية الأساسية بشرط أن يصطدم فيها صوتان اصطداماً حوارياً⁴ وهاتان الصوتان تدخلان في علاقة

¹ ابن الأبار، محمد بن عبد الله: الديوان، ص396.

² مكي، الطاهر أحمد: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط3، دار المعارف، 1987م، ص266.

³ الصعدي، عبد المتعال: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، دار السعادة: القاهرة، 2006م، 13/4.

⁴ باختين، ميخائيل: شعرية دستويفسكي، ترجمة د. جميل نصيف التكريتي، دار توفال للنشر: الدار البيضاء، 1986، ص69.

جدلية من نوع خاص لإنتاج دلالة جديدة، وقد أشار باقر جاسم محمد إلى وجود إجماع بين الباحثين على إرجاع مفهوم مصطلح "التناص" إلى (مخياييل باختين)، ذلك الناقد الذي حلل ظاهرة التناص دون استعمال المصطلح نفسه، ولا أية كلمة روسية تقابلها¹.

ثم جاءت (جوليا كريستيفا) لتشكيل مصطلح التناص من فكرة (باختين) السابقة لتكون أول من استعمله عام 1996، بعدما قدمت هذا المصطلح للدراسات النقدية، ثم توالت الأبحاث المرتبطة بهذا المفهوم على الرغم من تعدد المسميات، فهو خارج نصي لدى (يوريلوتمان) وتحويل أو تمثيل عند (لورانجيني) أما (جيرار جينيت) فقد أطلق عليه تسمية التعالي النصي أو التداخل النصي².

أما معنى التناص اللغوي، فهو دخول نص في نص، ومعناه النقدي علاقة ما بين نص حاضر مائل ونصوص أخرى سابقة أو معاصرة³ أو حتى لاحقة يدعى النص الغائب، وهي علاقة يكتشفها القارئ معتمداً فيها على ثقافته، وليس المقصود بالنص الغائب مجرد النص اللغوي المطبوع، وإنما الخطاب، ويعني أي شكل من أشكال التعبير بأي أسلوب أو طريقة أو وسيلة، من حركة أو إشارة أو عادات اجتماعية أو تعبير شعبي، ودراسة التناص هي التناصية والنصوص الغائبة التي دخلت في النص الحاضر تسمى المتناص بصيغة اسم المفعول⁴.
فالتناص ليس عملية بسيطة يمكن من خلالها فصل الأثر السابق عن العمل اللاحق المتأثر⁵؛ لأن التناص إنما هو تقاطع عبارات مأخوذة من نصوص أخرى⁶.

وللتناص أنواع وآليات وتقنيات، ومن أنواعه التناص الديني، والأدبي والأسطوري والتاريخي والشعبي.

¹ جاسم، باقر محمد: التناص المفهوم والآفاق، مجلة الآداب: بيروت، العدد 7-9، ص 65.

² الهكر، حاتم: ترويض النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة دراما أدبية، 1998، ص 185.

³ علوش، سعيد: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني: بيروت، 1985م، ص 215.

⁴ أبو شهاب، رامي: مصطلح السرقات الأدبية والتناص، جدة: مجلة علام في النقد، 2008م، المجلد 16 الجزء 64، ص 248.

⁵ داغر، شربل: التناص دلاليًا لدراسة النص الشعري وغيره، فصول، 1997م، ص 139.

⁶ جهاد، كاظم: أدونيس منتحلاً، ط2، مكتبة مدبولي: مصر، 1993م، ص 34.

والتناص الديني هو لون من ألوان التناص، ومن أقسام التناص الديني، التناص القرآني الذي معناه حضور النص القرآني في النصوص بصورة مختلفة ومن أهداف هذا التناص، كشف التراث الإسلامي الموجود في آثار الأدباء والشعراء وإظهاره، والتناص من القرآن له أشكال مختلفة، منها: ما يستخدم المفردات القرآنية، أو يستخدم المضمون القرآني أو يستخدم الجمل القرآنية.

إن النص القرآني نص خاص، وخصوصيته نابعة من قداسته وألوهية مصدره¹، ويعد النص القرآني مصدراً غنياً للتناص ولإلهام الشعري على مستوى الدلالة واللغة، ذلك أن استحضار الخطاب الديني في الخطاب الشعري، يعني إعطاء مصداقية، وتميز لدلالات النصوص الشعرية، انطلاقاً من مصداقية الخطاب القرآني وقداسته².

إضافة إلى ما يعالجه القرآن الكريم من قضايا تتطابق وطبيعة الصراع المحتدم على الأندلس بين قوى الحق والجهاد، وقوى الباطل والاحتلال.

إن للقرآن الكريم مكانة خاصة لدى الأدباء والشعراء، والاستخدام الفني لآيات القرآن ومضامينه في النصوص وتعاملها مع علل جمالها وغنائها، فالتناص القرآني نوع من أنواع التناص في الدراسات الأدبية له هدف أدبي جمالي؛ حيث إن أسلوب القرآن هو الأمتل للغة العربية³.

لهذا كثير من الأدباء والشعراء يستعملون هذا الفن (التناص) في آثارهم، وكان لشعراء رثاء المدن نصيب وافر في استخدام التناص القرآني بأشكاله وصوره، من حيث اللفظ والمضمون فالشعر الذي رثى الأندلس يعكس تأثير الشعراء بالقرآن الكريم.

إن الاستعانة بالنص القرآني في البناء الشعري، لا يعني عند هؤلاء أكثر من تأكيد الدلالة الشعرية للوصول إلى المعنى المركز، وهو ما يقابله الاستشهاد في النثر، لكنه في الشعر أكثر تركيزاً وكثافة، وفيه تصرف، -ولو طفيفاً- بالنص القرآني ليتساوى والنص الشعري.

¹ ينظر: أبو زيد، نصر حامد: مفهوم النص - دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت-لبنان، 1996ص19.

² ينظر: جربوع، عزة: التناص مع القرآن الكريم في الشعر العربي المعاصر، مجلة فكر وإبداع، 2002م، العدد 13، ص134.

³ الغباري، عوض: دراسات في أدب مصر الإسلامية، دار الثقافة العربية: القاهرة، 2003م، ص161.

إن ظهور التناس في شعر رثاء المدن الأندلسية يدل على ثقافة عامة، وظفها الشاعر واستلهمها في تطلعاته ومقاصده وأفكاره الشعرية، وكان للقرآن نصيب وافر من شعرهم، فالقرآن معين لا ينضب قد ألهم الشعراء والكتاب والمتطوعين إلى الحرية والخلاص عبر العصور.

والدارس لمواقع التناس مع القرآن الكريم في شعر رثاء المدن الأندلسية يجده تناساً متنوعاً، تارة يكون باللفظ وأخرى بالمعنى، وظواهر التناس من القرآن تتوزع على عدة نقاط وتشمل عدة محاور؛ لكل منها دوره وأهميته في إنتاج الدلالة وتوضيحها وفق زاوية أو رؤية معينة، وقد تأخذ هذه الظواهر أشكالاً مختلفة بحيث تعطي التناس قيمة دلالية خاصة، تتم عن إدراك شعراء رثاء المدن الأندلسية لموروثهم الديني، وفي مقدمته القرآن الكريم.

ويندرج الاقتباس تحت راية التناس فلا ضير من توضيح مفهوم الاقتباس فهو "أن يُضمن الكلام شيئاً من القرآن والحديث ولا ينبه عليه للعلم به"¹، وقال البلاغيون عن الاقتباس إنه: "تضمين الكلام نظماً كان أم نثراً شيئاً من القرآن والحديث لا على أنه منه، أي على طريقة أن ذلك الشيء من القرآن والحديث، يعني على وجه لا يكون فيه إشعار بأنه منه"²

كما ينظر للاقتباس على أنه شكل من أشكال التناس³، والتضمين والاقتباس يدخلان تحت دائرة التناس، فالأقتباس يشكل رافداً مهماً وأساسياً من روافده، كما أن التضمين يشكل رافداً مهماً آخر سواء أكان ذلك بنقل الملفوظ أم الفكرة.⁴

أما أنواع الاقتباس فهي أربعة:

1- تأثر النثر بالقرآن الكريم.

¹ الحلبي، شهاب الدين: حسن التوسل إلى صناعة الترسيل، تحقيق أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر: بغداد، 1980م، 223-225.

² التفقازاني، سعد الدين: مختصر المعاني، مطبعة عبد الله أفندي: القاهرة، 1307هـ، ص450؛ والقزويني، الخطيب: الإيضاح في علوم البلاغة، مطبعة السنة المحمدية: القاهرة، 2/416.

³ الزواهره، ظاهرة محمد هزاع: التناس في الشعر العربي المعاصر: التناس الديني نموذجاً، (رسالة ماجستير)، الجامعة الأردنية: الأردن، 2011، ص74.

⁴ لوشن، نور الهدى: التناس بين التراث والمعاصرة، مجلة جامعة أم القرى، الجزء الثاني، المجلد15، العدد 26، 2003م، ص1029.

2- تأثر الشعر بالقرآن الكريم.

3- تأثر النثر بالحديث الشريف.

4- تأثر الشعر بالحديث الشريف.

وفي هذا الفصل إن ما يعنينا هو النوع الثاني والرابع من أنواع الاقتباس، إذ سنقف على اقتباس شعر رثاء المدن الأندلسية من القرآن الكريم، واقتباسه من الحديث الشريف، ولا تقتصر النزعة الدينية في شعر رثاء المدن على الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف وعلى التناص الديني، وإنما استخدم الشعراء ألفاظ القرآن الكريم والمعاني القرآنية والموضوعات الإسلامية والشعائر الإسلامية.

لقد تنوعت مصادر النزعة الدينية لدى الشعراء بتعدد الثقافات التي احتك بها كل شاعر، وقد تنوعت مصادر النزعة الدينية لدى شعراء رثاء المدن الأندلسية، فلم تكن الأندلس إلا مزيجاً من الحضارات والثقافات التي انصهرت معاً في وعاء الحضارة الإسلامية، وقد كان ظاهراً في شعر رثاء المدن الأندلسية تنوع المصادر المعرفية، وخاصة المصادر الدينية التي سنسلط عليها الضوء في هذه الدراسة، ومن أهم المصادر أو الروافد الدينية التي أثرت في شعر رثاء المدن الأندلسية القرآن الكريم.

ومن أمثلة التناص في قصائد رثاء المدن الأندلسية -بالإضافة الى ما ورد في الفصل الثاني من هذه الدراسة- والتي تدل على ثقافة الشعراء الدينية، وتأثير الموروث الديني في منظوقهم الإبداعي ما ورد في رثاء أبي المطرف بن عميرة لبلسية:

الطويل

فَنَشْكُرُ مَوْلَانَا وَنَعْلَمُ أَنَّهُ
عَلَى ذَاكَ يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَيَغْفِرُ¹
فالشاعر يقتبس من القرآن الكريم قوله تعالى: (يعفو عن كثير) من الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ
مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾²، فبعد أن تحدث الشاعر عما حل بالأندلس،

¹ المرابط، أبو العلاء: زواهر الفكر وجواهر الفقر، السفر الثالث، مصور عن مخطوط الأسكوريال رقم (520)، ورقة 78/77.

78/77.

² سورة الشورى، آية 30.

وكيف تفرق أهل الأندلس وتتسنتوا، يشكر المولى عز وجل على قضائه وقدره، فشكر الله يكون في السراء والضراء، ويعلم أن الله يغفر الذنوب، وكأن الشاعر يرجع سبب انتشار عقد الأندلس إلى الذنوب التي يقوم بها أهل الأندلس، ويتأمل العفو من الله تعالى.

وفي قصيدة أبي إسحاق إبراهيم بن عبيد في رثاء الأندلس يقتبس من القرآن في قوله:

الوافر

فَنَصْرًا يَا إِلَهَ الْخَلْقِ نَصْرًا فَأَنْتَ اللَّهُ تَفَعَّلَ مَا تُرِيدُ¹
فالشاعر اقتبس قوله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾² فهو يطلب النصر من الله تعالى القادر على كل شيء فهو سبحانه يفعل ما يريد.

ومن أبي إسحاق إلى أبي العباس الدقون في رثاء غرناطة حيث يقول:

البيسط

لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ قَدْرَهُ وَالْأَمْرُ لِلَّهِ مِنْ قَوْلٍ وَأَفْعَالٍ³
لقد استحضر الشاعر في البيت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَيْلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾⁴
فالشاعر يرد ما حل بالأندلس إلى قضاء الله وقدره، فله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد، ومن قول
ومن فعل. وكذلك اقتبس أبو العباس الدقون مرة أخرى من القرآن الكريم في قوله:

البيسط

قَدْ رَامَ إِطْفَاءُ نُورِ اللَّهِ مُجْتَهَدًا وَيَاذِلًا كُلَّ مَا قَدْ حَارَ مِنْ مَالٍ
سَطًا بِجَيْشٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِي عَدَدٍ نَعْمَ وَفِي عَدَدٍ رَهْطٍ أَبْطَالٍ

¹ عبد القادر زمامه: نص أندلسي لم ينشر: مجلة المناهل المغربية، عدد 26، السنة العاشرة جمادى الأولى 1403/ مارس 1983م، ص 291.

² سورة البروج، آية 16.

³ التلمساني، المقري: أزهار الرياض، ج 1، ص 104.

⁴ سورة الأنفال، آية 44.

مُؤَيَّدًا بِاجْتِمَاعِ الْمِصْرِ يَتَّبِعُهُ شَرُّ الْخَلَائِقِ مَسْرُورًا بِإِقْبَالِ¹
يتناص الشاعر قوله تعالى (إطفاء نور الله) مع الآية الكريمة: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾² فالآية الكريمة تصف الكفار أنهم يريدون أن يخفوا الإسلام عن
الناس ويمنعوا انتشاره، ومثلت حالتهم بحالة نفر يبتغون الظلم للتخلص أو غيره، مما يراد فيه
الاحتفاء، فالآية مثلت لمن يريدون منع ظهور الإسلام كقوم يريدون إطفاء النور، والشاعر اقتبس
التمثيل القرآني ومثل به الصليبيين الذين يريدون أن يقضوا على الإسلام في الأندلس، فهم كهؤلاء
الكفار الذين يريدون إطفاء النور.

إن التناص القرآني أفاد المعنى وعززه، فالشاعر يريد أن يقول: بأن الصليبيين يريدون القضاء
على الإسلام في الأندلس، وأن المعركة معركة على الإسلام في المقام الأول، لقد أكسب التناص
الآبيات مصداقية وقوة في التعبير عن مشاعر الشاعر.

وفي رثاء شاعر مجهول لطليظة يقول:

الوافر

تَتَغَصَّتِ الْحَيَاةُ فَلَا حَيَاةَ وَوَدَّعَ جِيْرَةً إِذْ لَا مُجِيْرُ
فَلَيْلٌ فِيْهِ هَمْ مُسْتَنْكِيْنٌ وَيَوْمٌ فِيْهِ شَرٌّ مُسْتَنْطِيْرٌ³

فقوله: (ويوم فيه شر مستطير) فيه تناص مع قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ
مُسْتَطِيرًا﴾⁴، فالله تعالى يتحدث عن المؤمنين الذين أوفوا بعهدهم مع الله وأقاموا عبادته، وأطاعوه،
وأطاعوه، بأنهم فعلوا ذلك ليتجنبوا عذاب يوم القيامة عذاب يوم شره مستطير، والشاعر تناص مع
وصف المولى عز وجل، في وصف الحياة في الأندلس بعد أن اجتاحتها جيش الصليبيين فالحياة
تتغصت في الأندلس، بل وكأن لا حياة فيها، فالليل في الأندلس يحمل الهموم والآلام، والأيام فيها
عذاب كعذاب جهنم لشدة ما يحدث من ترويع وتعذيب وقتل.

¹ التلمساني، المقري: أزهار الرياض ، ج1، ص104.

² سورة الصف، آية 8.

³ التلمساني، المقري: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص483.

⁴ سورة الإنسان، آية 7.

لقد وفق الشاعر في اقتباسه من القرآن الكريم؛ إذ إن استخدام وصف الله عز وجل لعذاب يوم القيامة ليصف به يوم الأندلس في الحرب يدفع المتلقي إلى تصور مقدار الألم والعذاب الذي تعيشه الأندلس، وبالتالي خلق الشاعر حالة من التعاطف والحزن على ما جرى في الأندلس. وبهذا أظهر الشاعر ثقافته الدينية وقدرته على استخدام المخزون الديني في إبداعه الشعري ليخدم النص الشعري.

التصريح

للشعر مقومات تقوم في بنائه الفني، منها مقومات أسلوبية دلالية، وأخرى بلاغية تركيبية، وهذه المقومات يحتج بها النقاد على جودة النص الشعري، وتعد بنية التصريح أحد المقومات التي عُرفت في الشعر منذ القديم، فما هو التصريح؟ وما هي وظيفته في الشعر؟ وما هو الأثر الذي يحدثه؟

جاء في معجم مقاييس اللغة: " (صرع) الصاد والراء والعين أصل واحد، يدل على سقوط شيء إلى الأرض عن مراس اثنين، ثم يحمل على ذلك، ويشتق منه، من ذلك صرعت الرجل صرعا وصارعته مصارعةً، ورجل صريع. والصرع من الأغصان ما تهدل، وسقط إلى الأرض، والجمع صُرْع"¹.

أما ابن منظور (ت ٧١١ هـ) ، فيقول في حديثه عن مادة (صرع): "والصرع: علة معروفة. والصرع: المجنون... والصرعة: الحليم عند الغضب، لأن حلمه يَصْرَعُ غضبه على ضد معنى قولهم: الغضب غُولُ اللحم"²، ويقول: "صرع الباب: جعل له مصراعين، قال أبو إسحاق: المصراعان بابا القصيدة بمنزلة المصراعين اللذين هما بابا البيت، قال: واشتقاقهما من الصرعين، وهما نصفا النهار"³. ويقول الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ): "وتصريح الشعر هو: تقفية

¹ ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، (ت ٣٩٥ هـ): مادة (صرع)، تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون، دار الجيل: بيروت.

² ابن منظور : لسان العرب: مادة (صرع) حقه، وعلق عليه، ووضع حواشيه : عامر أحمد حيدر، راجعه: عبد المنعم خليل إبراهيم، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٣.

³ المصدر نفسه، الموضع نفسه.

المصراع الأول، مأخوذ من مصراع الباب، وقيل: تصريع البيت من الشعر: جعل عروضه كضربه¹.

أما التصريع في الأدب فإنه عند ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ) يعني: "هو ما كانت عروض البيت فيه تابعة، تنقص بنقصه، وتزيد بزيادته لضربه"² ويقسمه ابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ) على قسمين، يقول: "التصريع على ضربين: عروضي، وبديعي، فالعروضي: عبارة عن استواء عروض البيت وضربه في الوزن والإعراب والتقفية، بشرط أن تكون العروض قد غيّرت عن أصلها، لتلحق الضرب في زنته، والبديعي: استواء آخر جزء في الصدر، وآخر جزء في العجز في الوزن والإعراب والتقفية"³، ويحدده الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) "بجعل العروض مقفاة تقفية الضرب"⁴.

وعن علاقة التصريع بالتقفية، فإن "أهل البديع يسمون التقفية تصريعاً، إذ لا يعتبرون الفرق بينهما"⁵. ويقول قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) في نعت القوافي: "أن تكون عذبة الحرف، سلسلة المخرج، وأن تقصد لتصيير مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها"⁶. ويقول ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ): "وأما التصريع، فيجري مجرى القافية، وليس الفرق بينهما، إلا أنه في آخر النصف الأول من البيت، والقافية في آخر النصف الثاني منه"⁷.

¹ الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، مادة (صرع)، اعتنى به، ووضع حواشيه د. عبد المنعم خليل إبراهيم، و أ. كريم سيد محمد محمود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٧ م.

² القيرواني، ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه، وفصله، وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة: بيروت - لبنان، ١٩٧٢ م، ١/ ١٧٣.

³ المصري، ابن أبي إصبع: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق . د: حفني شرف، أشرف على إصدارها : محمد توفيق عويضة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٣ م، ٢/ ٣٠٥.

⁴ القزويني، الخطيب: الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) مختصر تلخيص المفتاح ، راجعه وصححه ، وخرّج آياته : الشيخ بهيج غزالي، ط ٢، دار إحياء العلوم، بيروت - لبنان، ١٩٩٣ م ، ٣٦٥.

⁵ المصري، ابن أبي إصبع: تحرير التحبير، ٢: ٣٠٧.

⁶ ابن جعفر، قدامة: نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، ط١، ص٤٢ .

⁷ الخفاجي، ابن سنان: سر الفصاحة، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، ميدان الأزهر، ١٩٦٩ م، 180، وينظر: القرطاجني، حازم(ت ٦٨٤هـ): منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، ٢٨٣.

أما وظيفة التصريح فقد عمد إليه الشعراء؛ لأنه باعتقاد بعض النقاد "دليله على إجادتهم"¹. وهذا ما أشار إليه قدامة بن جعفر في قوله: "فإن الفحول والمجيدين من الشعراء القدماء والمحدثين يتوخون ذلك، ولا يكادون يعدلون عنه"²، إذ "فيه دلالة على سعة القدرة في أفانين الكلام"³.

في حين يعزو (ابن رشيق) توظيفه إلى إعلام المتلقي بالفن الأدبي (الشعر)، وتمييزه قبل أن يقرأ هويته، وهو يصل إلى القافية، يقول: "وسبب التصريح مبادرة الشاعر القافية، ليعلم في أول وهلة أنه أخذ في كلام موزون غير منثور، ولذلك وقع في أول الشعر"⁴، "إذا فالشاعر باستخدام التصريح في أول بيت في القصيدة إعلان عن مجاوزة النثر، وهذا ما جعل الشاعر القديم يستخدم التصريح كعلامة على نوع المقطع الذي اختاره حتى نهاية القصيدة"⁵.

وإذا كان في التصريح علامةً فَرَّقَ بها (ابن رشيق) الشعر والنثر، نرى أن (ابن سنان) ينظر إليها وهو يفرق بين أبيات الشعر نفسه، يقول: "والذي أراه أن التصريح يحسن في أول القصيدة، ليميز بين الابتداء وغيره"⁶، بل رأى أنه يبنى بالقافية وإمكانية معرفتها، يقول: " ويفهم قبل تمام البيت روي القصيدة وقافيتها"⁷. أما (الخطيب القزويني) فيرى في هذا الفن ما يساعد المتلقي في مجال الميزان الصرفي للبيت، إذا ما وقع بين مصراعيه اختلاف، يقول: "وهو مما

¹ عباس، زهرة خضير: التصريح في شعر المتنبي (ت ٣٥٤ هـ) دراسة تحليلية، جامعة بغداد - كلية التربية - ابن رشد قسم اللغة العربية، العدد (٢٠٣) لسنة ١٤٣٣ هجرية - ٢٠١٢ ميلادية.

² ابن جعفر، قدامة: نقد الشعر، ٤٢.

³ الأثير، ضياء الدين (ت ٦٣٧ هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدم له، وحققه، وعلق عليه د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١/ ٣٣٨، وينظر: اليميني، يحيى بن حمزة (ت ٧٤٥ هـ): كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي: مراجعة وضبط وتدقيق: محمد عبد السلام شاهين، ط١، دار الكتب العلمية: بيروت - لبنان، ١٩٩٥م، ٤١٣.

⁴ القيرواني، ابن رشيق: العمدة، 174/1.

⁵ فاويزي، محمد: التصريح في الشعر العربي (الجنود البنائية والقضايا النقدية)، مجلة كلية الآداب بالجديدة، المغرب، المجد 11، العدد 12، 2010م، ص 174.

⁶ الخفاجي، ابن سنان: سر الفصاحة، ١٨١.

⁷ الخفاجي، ابن سنان: سر الفصاحة، ١٨١، وينظر: الأثير، ضياء الدين: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ١: ٣٣٨: ٣٣٨: وكذلك اليميني، يحيى بن حمزة: كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ٤١٣.

استحسن، حتى أن أكثر الشعر صرع البيت الأول منه، ولذلك متى خالفت العروض الضرب في الوزن، جاز أن تجعل موازنةً له، إذا كان البيت مصرعاً¹.

وقد وصل اهتمام البعض بالتصریح في أول القصيدة أن عدوه "أحد ركائز عمود الشعر، وعدوا عدم الالتزام به معيباً"².

وبالرغم من أن التصریح في بداية القصائد إلا أن البعض يرى أنه قد يكون أيضاً في وسط القصائد³

أما في شعر رثاء المدن الأندلسية الذي نحن بصدد الحديث عنه فإن الشعراء اهتموا بالتصریح واستهلوا به مطالع قصائدهم، فقد ساروا على خطى الشعراء في المشرق، فالغرض الذي نتحدث عنه (رثاء المدن الأندلسية) بحاجة إلى انتباه المتلقي، فالموضوع الذي يتحدث عنه الشاعر موضوع جاد. إن الأمثلة على التصریح في قصائد رثاء المدن الأندلسية كثيرة جداً، وهي تتبنا عن حرص الشعراء عليه، ومن هذه الأمثلة على التصریح قول ابن شهيد في مطلع رثائته:

الكامل

ما في الطُّولِ مِنَ الْأَجْبَةِ مُخْبِرٌ فَمَنْ الَّذِي عَنْ حَالِهَا نَسْتَخْبِرُ⁴

فابن شهيد صرّع بداية قصيدته فقد انتهى الشطر الأول بكلمة (مخبر) والشطر الثاني انتهى بكلمة (نستخبر)، فالتصریح حدث بيت كلمتي (مخبر، ونستخبر) إذ نلاحظ أن التقنية واحدة في المصراعين وهي (خبر) فقد توافقت الأحرف الثلاثة في الكلمتين، إن اعتماد ابن شهيد تقنية التصریح مطلع قصيدته أعطاه جرساً موسيقياً منبها للقارئ، كذلك نبأ عن لون العمل الأدبي، فقد احتذى بتصریح المطلع على غرار الشعر القديم، وزاد المعنى قوة وجمالاً "وهكذا فقد انسجمت الأصوات مع الدلالة في بنية التصریح وغدت ضرباً من التقنن العجيب في إبداع المعنى"⁵.

¹ القزويني، الخطيب: الإيضاح، ٣٦٥.

² الشاعر، صالح عبد العظيم فتحي: التصریح في وسط القصيدة (نماذج من الشعر الجاهلي)، حوليات آداب عين شمس: شمس: مصر، يناير- مارس 2014م، مجلد 42، ص

³ للمزيد عن التصریح في وسط القصيدة ينظر: الشاعر، صالح عبد العظيم فتحي: التصریح في وسط القصيدة: نماذج من الشعر الجاهلي.

⁴ الأندلسي، ابن شهيد: الديوان، ص 109.

⁵ نكاع، علي: جماليات التصریح في القصائد الأندلسية لأحمد شوقي (دراسة أسلوبية)، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع: الجزائر، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، ديسمبر 2017، العدد 12، ص 242.

وكذلك نلاحظ التصريح في قصيدة لشاعر مجهول رثى طليطلة يقول:

الوافر

لِنُكْلِكَ كَيْفَ تَبْتَسِمُ النُّغُورُ سَرُورًا بَعْدَمَا بَيَّسَتْ نُغُورُ¹

فالشاعر أنهى مصراعي مطلع قصيدته بكلمتي (الثغور، وثغور) وهما متطابقتان لفظا مختلفتان معنا، إذ واضح التصريح بين الكلمتين، وواضح ما له من فائدة في بنية القصيدة، لأن "الوظيفة التي تمنح للتصريح هنا تجعله دخالا في بنية الشعرية التي يصبح هو علامة مع علاماتها، ويتمثل ذلك من خلال التماثل الوزني والإيقاعي الذي يضيفه على افتتاحية القصيدة بما يوحي بنبرتها"²، فالتصريح - إذن - صوت له دلالة أو دلالة في قالب صوت³، و هذا التصريح بعيد عن التكلف و التصنع، لأن المعنى هو الذي طلبه واستدعاه.

وفي قصيدة أبي جعفر الوقشي البلنسي (أحمد بن عبد الرحمن بن أبي أحمد الكناني) التي مدح فيها الخليفة الموحي أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي، وحرّض فيها على الجهاد، ووصف حال الأندلس:

الطويل

أَبَتْ غَيْرَ مَاءٍ بِالنَّخِيلِ⁴ وَرُودَا وَهَامَتْ بِهِ عَذَبَ الْجَمَامِ مَرُودَا⁵

ومن الملاحظ أن الشاعر بدأ مطلع قصيدته بالتصريح بين الكلمتين (رودا، وبرودا) فالتقنية في الكلمتين واحدة في تكرار الحروف (رودا)، لقد أتاح التصريح للشعر جرساً موسيقياً جميلاً، ونبهت القارئ إلى الاستماع والإصغاء.

وفي رثاء شاعر مجهول لمدينة رندة وعدة مدن أخرى يقول مستهلا رثائيته:

¹ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص483.

² موسى، رابعة: قراءة النص الشعري الجاهلي، دار الكندي: الأردن، 1998م، ص131.

³ بكاي، أخذاري: تحليل الخطاب الشعري، قراءة أسلوبية في قصيدة قذى بعينيك للخنساء، الجزائر، 2007م، ص51.

⁴ النخيل اسم عين قرب المدينة على خمسة أميال وإياها عنى كثير:

جعلني أراضي النخيل مكانه إلى كل قر مستطيل مقنع

واسم لمواضع كثيرة في الحجاز واليمن والشام، (الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص 770-771).

⁵ المقري، التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص478؛ المراكشي، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك:

الملك: الذيل والتكملة، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة: بيروت، السفر الأول، القسم الأول، ص197.

الطويل

أَحَقًّا خَبَا مِنْ جَوِّ رَنْدَةَ نُورَهَا وَقَدْ كَسَفَتْ بَعْدَ الشُّمُوسِ بِدُورِهَا¹

لقد اعتمد الشاعر التصريع في مستهل قصيدته فقد انتهى الشطرين بكلمتي (نورها، وبدورها) ومن الملاحظ توافق القافية في الكلمتين، إن وجود التصريع في مستهل القصيدة أعطى البيت جرساً موسيقياً نبه أذن المتلقي، ولفت انباهه لما سيأتي من كلام بعده، لقد اعتمد شعراء رثاء المدن هذه التقنية لأن الموضوع الذي يتناولونه بحاجة إلى إصغاء وانتباه من المتلقي فالأمر جلل والمصاب كبير، والبلاد دمرت، والأعراض انتهكت، لذا عمد الشعراء إلى التصريع، كما أن الشاعر في خطابه واستجاده يحتاج إلى لفت نظر الخليفة أو الأمير الذي يستجد به، فلجأ إلى التصريع ليكون وسيلة ومعيناً في لفت الانتباه.

والأمثلة على استخدام التصريع في مطالع قصائد رثاء المدن الأندلسية كثيرة نذكر منها قول أبي العباس الدقون في رثاء غرناطة والأندلس:

البيسط

أَمِنْتُ مِنْ عَكْسِ آمَالٍ وَأَحْوَالٍ وَعَشْتُ مَا بَيْنَ أَعْمَامٍ وَأَحْوَالٍ²

ومن الأمثلة الأخرى على ذلك قول أبي عمر بن المرابط في استجاده بابن الأحمر:

الكامل

هَلْ مِنْ مَعِينِي فِي الْهَوَى أَوْ مُجْدِي مَنْ مَتَّهَمٍ فِي الْأَرْضِ، أَوْ مِنْ مُنْجِدٍ؟³

وكذلك استخدم أبو البقاء الرندي التصريع في مطلع قصيدة، يقول:

البيسط

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُفْصَان فَلَا يُعْرُ لِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانٌ⁴

¹ أورد أرسلان، شكيب: *الحلل السندسية*، ج3، ص548، جزءاً من هذه القصيدة؛ أورد عنان: *نهاية الأندلس* ص253-255) بعضاً من هذه القصيدة، وأوردها كاملة خفاجة، محمد عبد المنعم: *قصة الأدب في الأندلس*، ج1، ص132-137.

² المقري، أحمد بن محمد التلمساني: *أزهار الرياض*، ج1، ص104.

³ ابن خلدون: *العبر*، ج7، ص409-414؛ أرسلان، شكيب: *خلاصة تاريخ الأندلس*، ص81-83.

⁴ المقري، أحمد بن محمد التلمساني: *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، ج4، ص487.

وفي مطلع مقصورة حازم القرطاجني يستهلها بالتصريح، يقول:

الكامل

على فُوادي من تباريح الجوى!¹

بَلَّهَ مَا قَدِ هَجَّتْ يَا يَوْمَ النَّوَى

¹ الخوجة، محمد الحبيب: قصائد ومقطعات (صناعة ابن الحسن حازم القرطاجني)، ص 71_17.

الخاتمة

- في نهاية هذه الدراسة يمكن لنا أن نجمل أبرز ما خلصت إليه من نتائج نجلها في النقاط الآتية:
1. هناك تفاوت في الآراء حول كون شعر رثاء المدن غرضاً أندلسياً أصيلاً، أم أنه قد عُرف قبل أن يعرف في الأندلس، وقد رجحت الدراسة الرأي الذي يعده غرضاً أندلسياً أصيلاً.
 2. إن معظم الأدباء الذين عاشوا في الأندلس زمن الأحداث، قد أدوا رسالتهم بفاعلية في مواجهة تحديات الإسبان، لوجود الإسلام في الأندلس، فحضوا على الجهاد وجاهدوا في ميادين القتال، ودعوا للوحدة، ولم الشمل، وكان بعضهم سفراء خير ووحدة داخل الأندلس وخارجها، وذلك لإنقاذها من التداعي، وهذا لا ينفي وجود فئة من الأدباء الذين لاذوا بالصمت أو انشغلوا بتحقيق مآربهم الشخصية، وقد حرصوا وركزوا على رسم المعركة: إنها معركة الكفر مع الإسلام، فاستخدموا لذلك الألفاظ التي تؤكد على ذلك.
 3. كانت أشعار رثاء المدن الأندلسية إسلامية الطابع - في غالبيتها - فقد كانت الروافد الدينية هي الأولى التي استقى منها شعراء رثاء المدن ثقافتهم، ومخزونهم الفكري الذي أثر في نتاجهم الأدبي.
 4. كان القرآن الكريم هو الرافد الأول والرئيس بين تلك الروافد التي كونت ثقافة الشعراء فاستقوا من ألفاظه ومعانيه، كما كان للقصص القرآنية دور في صبغ تلك الأشعار بالصبغة الإسلامية، كما أثرت الأحاديث النبوية الشريفة في ثقافة الشعراء، وتمثلها في أشعارهم، لكنها كانت بدرجة أقل من القرآن الكريم.
 5. أوضحت أشعار رثاء المدن حرص الشعراء على الدين، وبينت تمسكهم العقدي من خلال تضمينهم الشعائر الإسلامية في أشعارهم، ومن خلال رسم الصورة للمقدسات الإسلامية وما حل بها في معركة الأندلس مع الإسبان.
 6. كرر شعراء رثاء المدن الأندلسية الألفاظ التي تدل على ثقافة الشعراء الإسلامية وعاطفتهم الدينية؛ كلفظ الجلالة وألفاظ الكفر والإسلام، وكرروا بعض الأساليب التي تميز شعر رثاء المدن كالاستفهام والنداء والقسم.

7. اهتم شعراء رثاء المدن الأندلسية بالصورة الفنية بما يخدم هدفهم وغرضهم الشعري، فضمنوها أشعارهم، فظهرت عندهم الصورة اللغوية المجردة، والصورة التشبيهية، كما أولوا اهتماماً للصورة الاستعارية؛ فجعلوا منها وسيلة أكثر رقياً، وأقدر على التعبير من التشبيه ومن اللغة المجردة، واعتمدوا عليها في رسم كثير من الصور لمأساتهم ومعاناتهم.

8. اهتم شعراء رثاء المدن الأندلسية ببناء القصيدة، وركزوا على مطالع قصائدهم لما له من أهمية في جذب انتباه المتلقي، وإقدامه على النص.

9. شكل التناص - وبخاصة الديني - عنصراً مهماً، وملحاً مميزاً في شعر رثاء المدن الأندلسية؛ لأنه يعطي النص قدسية وتأثيراً في النفس البشرية.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ابن الأبار، محمد بن عبد الله: *الديوان*، تحقيق عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر: تونس، 1985م.
- *المقتضب من كتاب تحفة القادم*، تحقيق إبراهيم الأبياري، المطبعة الأميرية: القاهرة، 1957م.
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن: *الكامل في التاريخ*، دار صادر: بيروت، 1982م.
- ابن الخطيب، لسان الدين: *أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من حكام الإسلام*، تحقيق ليفي بروفنسال، ط2، بيروت: 1956م.
- ابن الخطيب، لسان الدين: *أعمال الأعلام*، ط2، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف: بيروت - لبنان، 1956م.
- ابن جعفر، قدامة: *نقد الشعر*، تحقيق: كمال مصطفى، ط1، د.ت.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: *العبر*، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، 1959م.
- *المقدمة*، ط4، *دار إحياء التراث العربي*: بيروت، د.ت.
- *مقدمة ابن خلدون*، اعتني به: هيثم جمعه هلال، ط1، مؤسسة المعارف: لبنان-بيروت، 2007م.
- ابن رشيق، أبو الحسن بن رشيق القيرواني: *العمدة في محاسن الشعر وآدابه*، تحقيق: محمد قرمزان، الطبعة الأولى، دار المعرفة: بيروت، 1988م.
- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى: *اختصار القدر المعلى في التاريخ المحلي*، اختصره أبو عبد الله بن خليل، تحقيق إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية: القاهرة، 1959م.
- ابن فارس: *معجم مقاييس اللغة*، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل: بيروت، (د.ت).
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: *تفسير القرآن العظيم*، تحقيق محمد حسين شمس الدين ط.1، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت، 1419هـ.

- ابن مالك الأندلسي، بدر الدين أبو عبد الله محمد بن جمال الدين، *المصباح في علم المعاني والبديع*، المطبعة الخيرية: القاهرة، 1341هـ.
- ابن منظور، جمال الدين: *لسان العرب*، الدار المصرية للتأليف والترجمة د.ت.
- الأثير، ضياء الدين: *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*، (ت ٦٣٧هـ)، قدم له، وحققه، وعلق عليه د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، مطبعة نهضة مصر: القاهرة.
- الإسرائيلي، ابن سهل: *الديوان*، تحقيق بطرس البستاني، مكتبة صادر: بيروت، 1953م.
- الأصفهاني، عماد الدين: *خريدة القصر وجريدة العصر*، قسم شعراء المغرب، والأندلس، تحقيق آذرتاش، وأذرنوش، نقحه وزاد عليه محمد المرزوقي، ومحمد العروسي المطوي، والجيلاني ابن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر: 1971م - 1972م.
- الأعشى، ميمون: *ديوان الأعشى*، تحقيق لجنة الدراسات في دار الكتاب اللبناني، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1960م.
- الإلبيري، أبو إسحاق: *الديوان*، تحقيق د. محمد رضوان الداية، بيروت: مطبعة الرسالة، 1976م.
- الأندلسي، ابن شهيد: *الديوان*، جمع يعقوب زكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر: القاهرة.
- بردي، ابن تغري: *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، مطبعة دار الكتاب المصرية: القاهرة، 1353هـ-1935م.
- التفتازاني، سعد الدين: *مختصر المعاني*، مطبعة عبد الله أفندي: القاهرة، 1307هـ.
- التلمساني: أحمد بن محمد المقري: *نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي: بيروت.
- أعمال الأعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، ط 2، دار المكشوف: لبنان: بيروت، 1956م.
- الحلّي، شهاب الدين: *حسن التوسل إلى صناعة الترسيل*، تحقيق أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر: بغداد، 1980م.
- الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر بن عبد الله: *تسهيل السبيل إلى تعليم الترسيل بتمثيل المماثلات وتصنيف المخاطبات*، مخطوط، الجامعة الأردنية مركز الوثائق والمخطوطات، رقم الشريط (650).

- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم: *صفة جزيرة الأندلس (مقتطفة من الروض المعطار)*، تحقيق بروفنسال، مطبعة لجنة التأليف، 1937م.
- الخريمي، أبو يعقوب إسحق بن الصفدي: *الديوان*، دار الكتاب الجديد: بيروت، 1971م.
- الخطيب، لسان الدين: *الإحاطة في أخبار غرناطة*، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط1، مكتبة الخانجي: مصر، 1974م.
- *الإحاطة في أخبار غرناطة*، تحقيق محمد عبد الله عنان، دار المعارف: مصر.
- الخفاجي، ابن سنان: *سر الفصاحة*، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، ميدان الأزهر، 1969م.
- الزبيدي، محمد المرتضى: *تاج العروس من جواهر القاموس*، اعتنى به، ووضع حواشيه عبد المنعم خليل إبراهيم، وكريم سيد محمد محمود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2007م.
- الشنتريني، ابن بسام: *الذخيرة*، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب: ليبيا- تونس، 1981م.
- *الذخيرة*، ق1 ج1، تحقيق اللجنة المكونة تحت إشراف كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1364هـ-1945م.
- العسكري، أبو هلال: *الصناعتين*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، ط1، دار الكتب: القاهرة، 1952م.
- الفاسي، ابن أبي زرع: *الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية*، دار المنصور للطباعة: الرباط.
- القرشي، أبو زيد محمد بن أبي زيد الخطاب: *جمهرة أشعار العرب*، دار المسيرة: بيروت، 1978.
- القرطاجني، حازم: *منهاج البلغاء وسراج الأدباء*، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية.
- *منهاج البلغاء وسراج الأدباء*، ط3، تحقيق: محمد الحبيب الخوجة، دار المغرب الإسلامي: بيروت، 1986م.

- القزويني، الخطيب: *الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) مختصر تلخيص المفتاح*، راجعه، وصححه، وخرج آياته: الشيخ بهيج غزاوي، ط2، دار إحياء العلوم: بيروت - لبنان، 1993م.
- *الإيضاح في علوم البلاغة*، مطبعة السنة المحمدية: القاهرة.
- القيرواني، ابن رشيقي: *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده*، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط2، مطبعة السعادة المكتبة التجارية الكبرى: القاهرة، 1955م.
- *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده*، حققه، وفصله، وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة: بيروت - لبنان، 1972م.
- المرابط، أبو العلاء: *زواهر الفكر وجواهر الفقر*، السفر الثالث، مصور عن مخطوط الأسكوريال رقم (520).
- المراكشي، ابن عذارى: *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - القسم الثالث (تاريخ الموحدين)*: تحقيق امبروس هويس مراندا وابن تاويت، دار كريمادس للطباعة: تطوان - المغرب، 1960م، ج3.
- *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، تحقيق ومراجعة ج. س كولان وأ. ليفي بوفنسال، دار الثقافة: بيروت.
- *الذيل والتكملة*، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة: بيروت، السفر الأول، القسم الأول.
- *المعجب في تلخيص أخبار المغرب*، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العلمي، ط1، مطبعة الاستقامة: القاهرة.
- المصري، ابن أبي إصبع: *تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن*، تقديم وتحقيق حفني شرف، أشرف على إصدارها: محمد توفيق عويضة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1963م.
- المغربي، ابن سعيد: *الغصون اليناعة في محاسن شعراء المائة السابعة*، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف: مصر.
- المقدسي، أبو شامة: *الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية)*، دار الجليل: بيروت.

- المقري، أحمد بن محمد التلمساني: *أزهار الرياض في أخبار عياض*، تحقيق الأبياري وشبلي والسقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر: القاهرة، 1358هـ-1939م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: *نهاية الأرب*، ط2، مطبعة دار الكتب: القاهرة، 1936م.
- اليمني، يحيى بن حمزة: *الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز*، مراجعة وضبط وتدقيق: محمد عبد السلام شاهين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1995م.

المراجع

- أبو خشب، محمد إبراهيم: *تاريخ الأدب العربي في الأندلس*، ط1، مطبعة المدني: مصر، 1966م.
- أبو زيد، نصر حاكذ: *مفهوم النص - دراسة في علوم القرآن*، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت-لبنان، 1996م.
- أبو ناجي، محمود حسن، *الرتاء في الشعر العربي أو جراحات القلوب*، ط1، دار مكتبة الحياة: بيروت، 1981.
- أرسلان، شكيب: *الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية*، ط1، مطبعة عيسى الباجي الحلبي: مصر، 1936م.
- أرسلان، شكيب: *خلاصة تاريخ الأندلس*، دار مكتبة الحياة: بيروت، 1083م.
- إسماعيل، عز الدين: *الأسس الجمالية في النقد الأدبي*، دار الفكر العربي: القاهرة، 1992م.
- *الشعر العربي المعاصر (قضايا وظواهره الفنية والمعنوية)*، دار العودة ودار الثقافة: بيروت-لبنان.
- أشباح، يوسف: *تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين*، ترجمة محمد عبدالله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، المعهد الخلفي بتطوان: القاهرة، 1940م.
- باختين، ميخائيل: *شعرية دستوفسكس*، ترجمة د. جميل نصيف التكريتي، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر 1986.

- بك، أحمد رضا: *وثائق عن الحروب الصليبية*، ترجمة محمد أبو رقية، وآخر، ط3، دار بوسلامة: تونس.
- بكاي، أخذاري: *تحليل الخطاب الشعري، قراءة أسلوبية في قصيدة قذى بعينيك للخنساء*، الجزائر، 2007م.
- بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن: *التفسير البياني في القرآن الكريم*، دار المعارف: مصر، 1977م.
- بهجت: منجد مصطفى، *الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين*، ط1، مؤسسة الرسالة: بيروت، 1986م.
- البيومي، محمد رجب: *الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير*، مطابع جامع الإمام محمد بن سعود الإسلامية: السعودية، 1400هـ-1980م.
- النطاوي، عبد الله: *حركة الشعر في ظلال المؤثرات الإسلامية*، د. ط، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع: القاهرة.
- جهاد، كاظم: *أدونيس منتحلاً*، ط2، مكتبة مدبولي: مصر، 1993م.
- الحجي، عبد الرحمن: *التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة*، ط2، دار القلم: دمشق - بيروت.
- الحمصي، نعيم: *الرائد في الأدب العربي*، ط2، دار المأمون للتراث: دمشق - بيروت، 1979م.
- الخطيب، بشرى محمد علي: *الرياء في الشعر الجاهلي وصدور الإسلام*، مديرية مطبعة الإدارة المحلية: بغداد، 1997م.
- خفاجة، محمد عبد المنعم: *قصة الأدب في الأندلس*، مطابع الغندور: بيروت، منشورات مكتبة المعارف، 1962م.
- الخوجة، محمد الحبيب: *قصائد ومقطعات (صنعة ابن الحسن حازم القرطاجني)*، الدار التونسية للنشر: تونس، 1972م.
- الداية، محمد رضوان: *أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس*، ط1، مؤسسة الرسالة: بيروت، 1396هـ-1976م.

- الدخيلي، حسين علي: *البنية الفنية لشعر الفتوحات الإسلامية في عصر صدر الإسلام*، ط1، دار الحامد للنشر والتوزيع: عمان، 2011م.
- الدقاق، عمر: *ملاحم الشعر الأندلسي*: دار الشرق: بيروت، 1975م.
- دودين، رفقة محمد عبد الله: *توظيف الموروث في الرواية الأردنية*، الطبعة الأولى، منشورات وزارة الثقافة: الأردن- عمان، 1997.
- الرافعي، مصطفى صادق: *تاريخ آداب العرب*، مطبعة الاستقامة، ط1، 1940م.
- الرقيب، شفيق محمد: *شعر الجهاد في عصر الموحدين*، مكتبة الأقصى: عمان، 1984م.
- الزيات، عبد الله محمد: *رثاء المدن في الشعر الأندلسي*، ط1، جامعة قاريونس: بنغازي، 1990م.
- زيدان، جرجي: *تاريخ الأدب العربي*، منشورات مكتبة الحياة: بيروت.
- السعيد، محمد مجيد: *الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس*، ط2، الدار العربية للموسوعات: بيروت، 1985.
- سماكة، باقر: *التجديد في الأدب الأندلسي*، مطبعة الإيمان: بغداد، 1971م.
- شرّاد، شلتاغ عبود: *أثر القرآن في الشعر العربي الحديث*، ط1، دمشق: دار المعرفة، 1987م.
- الشكعة، مصطفى: *الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه*، ط9، دار العلم للملايين: بيروت، 1997م.
- الشواف: قاسم، وأدونيس: *ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور*، الكتاب الثاني الآلهة والبشر، دار الساقى: بيروت، 1977م.
- الصعيدي، عبد المتعال: *بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة*، دار السعادة: القاهرة، 2006م.
- ضيف، شوقي: *الرثاء*، سلسلة فنون الأدب العربي، دار المعارف، 1995م.
- العاني، محمد شهاب: *أثر القرآن الكريم في الشعر العربي (دراسة في الشعر الأندلسي منذ الفتح وحتى سقوط الخلافة)*، ط1، دار دجلة: عمان، 2008م.
- عباس، احسان: *تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين*، ط5، بيروت: دار الثقافة، 1978م.

- عبد البديع، لطفي: *الإسلام في إسبانيا*، ط1، مكتبة النهضة المصرية: القاهرة، 1958م.
- عبيد، أحمد محمد علي: *شعر قبيلة كلب حتى نهاية العصر الأموي*، د. ط، أبو ظبي: الإمارات المتحدة، 1999م.
- عتيق، عبد العزيز: *الأدب العربي في الأندلس*، ط2، دار النهضة العربية: بيروت، 1396هـ - 1976م.
- العجلوني، اسماعيل: *كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس*، مطبعة دار الرسالة: عمان، 1405هـ.
- عسيبة، فادي صقر: *جهود نحاة الأندلس في تيسير النحو العربي*، ط1، دار الجندي للنشر والتوزيع: القدس، 2016م.
- العكش، إبراهيم علي: *التربية والتعليم في الأندلس*، دار الفيحاء: عمان، 1986م.
- علوش، سعيد: *معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة*، دار الكتاب اللبناني: بيروت، 1985م.
- عنان، محمد عبد الله: *تراجم إسلامية شرقية وأندلسية*، ط1، دار المعارف، مصر: 1947.
- عنان، محمد عبد الله: *دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس)*، مطبعة مصر، شركة مصرية مساهمة: مصر، 1378هـ-1958م.
- عيسى، فوزي سعد: *الشعر الأندلسي في عصر الموحدين*، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الإسكندرية، 1979م.
- عيسى، فوزي سعد: *في الأدب الأندلسي*، دار المعرفة الجامعية: الإسكندرية، 2009م.
- الغباري، عوض: *دراسات في أدب مصر الإسلامية*، القاهرة: دار الثقافة العربية، 2003م.
- غرسيا غومس، أميليو: *الشعر الأندلسي*، ترجمة حسين مؤنس، ط3، مكتبة النهضة المصرية: القاهرة، 1969م.
- غريب، روز: *تمهيد في النقد الأدبي*، دار المكشوف: بيروت، 1977م.
- فضل، صلاح: *إنتاج الدلالة الأدبية*، الطبعة الأولى، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع: القاهرة، 1987.
- الكحلوت: يوسف شحدة، *الأخلاق الإسلامية في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف*، الجامعة الإسلامية: غزة، 1986.

- الكزبري، سلمى الحفار: *في ظلال الأندلس*، (مجموعة محاضرات)، مطبعة ألف باء: دمشق.
- كنون، عبد الله: *تكريات مشاهير، حال المغرب مالك بن المرحل*، منشورات معهد مولاي الحسن مطبعة كريمادس تطوان.
- كونتنيو، جورج: *الحياة اليومية في بابل وأشور*، ترجمة سليم طه التكريتي، 1986، دار الشؤون الثقافية العامة: بغداد.
- لجنة من أدباء الأقطار العربية: *فنون الأدب العربي: الفن الغنائي: الرثاء*، دار المعارف: القاهرة.
- مبارك، زكي: *الموازنة بين الشعراء*، ط3، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1926م.
- محمد عبدالله عنان: *دولة الإسلام في الأندلس العصر الثالث*، ط1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر: القاهرة.
- مطلق، البير حبيب: *الحركة اللغوية في الأندلس*، المكتبة العصرية: صيدا- بيروت، 1967م.
- مكي، الطاهر أحمد: *دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة*، ط3، دار المعارف: القاهرة، 1987م.
- مكي، الطاهر أحمد: *ملحمة السيد*، ط1، دار المعارف: القاهرة، 1970م.
- موسى، رابعة: *قراءة النص الشعري الجاهلي*، دار الكندي: الأردن، 1998م.
- الموصللي، سامي: *دراسات أندلسية*، ط1، مطبعة الزمان: بغداد، ساعد وزارة الإعلام على نشره، 1970م.
- ناجي، مجيد عبد الحميد: *الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية*، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع: بيروت، 1984م.
- النعمة، مقبول علي بشير: *المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام*، دار صادر: بيروت، 1997م.
- الهكر، حاتم: *ترويض النص*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة دراما أدبية، 1998.
- هلال، محمد غنيمي: *النقد الأدبي الحديث*، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 1977م.
- الياسين، إبراهيم منصور محمد: *استيحاء التراث الأندلسي عصر الطوائف ومرّ العصور 400-* 539هـ، د. ط، عالم الكتب الحديثة: عمان، 2006م.

• يقطين، سعيد: *انفتاح النص الروائي*، ط2، المركز الثقافي العربي: بيروت- لبنان، 2001م.

المجلات والدوريات

- أبو شقرا، سعاد: *الخالديات منهن*، مجلة الأديب، لبنان- بيروت فبراير سنة 1954م.
- أبو شهاب، رامي: *مصطلح السرقات الأدبية والتناص*، جدة: مجلة *علام في النقد*، 2008م، المجلد 16 الجزء 64.
- جاسم، باقر محمد: *التناص المفهوم والأفاق*، مجلة الآداب، بيروت، العدد 7-9.
- جدوع، عزة محمد: *التناص مع القرآن الكريم في الشعر العربي المعاصر*، مجلة *فكر وإبداع*، ع9، الكويت، 1953م.
- جربوع، عزة: *التناص مع القرآن الكريم في الشعر العربي المعاصر*، مجلة *فكر وإبداع*، 2002م، العدد 13.
- الجوهري، محمد رمضان أحمد: *التعلل بالقدر وأثره في نكبتها*، مجلة *كلية اللغة العربية بالمنصورة (جامعة الأزهر)*: مصر، 2011م، العدد 30، ج1.
- خوليان ربييرا: *اهتمام المسلمين في الأندلس بالكتب*: جمال محرز، مجلة *العهد للمخطوطات العربية*.
- داغر، شريل: *التناص دلاليًا لدراسة النص الشعري وغيره*، فصول، 1997م.
- زرقان: عزوز: *الصورة الفنية في الشعر الاستصرخي الأندلسي الصورة الاستعارية نموذجاً*، مجلة الأثر، العدد 14/ جوان 2012.
- زمامة، عبد القادر: *نص أندلسي لم ينشر: مجلة المناهل المغربية*، عدد26، السنة العاشرة، جمادى الأولى، 1403هـ-1983م.
- الشاعر، صالح عبد العظيم فتحي: *التصريح في وسط القصيدة: نماذج من الشعر الجاهلي*، حوليات آداب عين شمس، يناير- مارس 2014م، مجلد 42، مصر.
- عباس، زهرة خضير: *التصريح في شعر المتنبي (ت 354 هـ) دراسة تحليلية*، جامعة بغداد - كلية التربية - ابن رشد قسم اللغة العربية، الاستاذ- العدد (203) لسنة 1433هـ - 2012م.

- عبد القادر زمامه: نص أندلسي لم ينشر: مجلة المناهل المغربية، عدد 26، السنة العاشرة جمادى الأولى 1403/ مارس 1983م.
- فاويزي، محمد: التصريح في الشعر العربي (الجنود البنائية والقضايا النقدية)، مجلة كلية الآداب بالجديدة، المغرب، المجلد 11، العدد 12، 2010م.
- فريوس، حسين يوسف: دراسة الجانب الفني في المراثية الأندلسية، المعرفة (216)، 1980م.
- لوثن، نور الهدى: التناص بين التراث والمعاصرة، مجلة جامعة أم القرى، الجزء الثاني، المجلد 15، العدد 26، 2003م.
- محمد عبد العزيز عثمان: الإمام والجواري ودورهن في المجتمع الأندلسي، العراق: مقال بمجلة آفاق جامعية، جامعة السليمانية، العدد 29 سنة 1981م.
- نصري، تسنيم: التفاعل بين النص والتلقي (الايقاع البديعي في نونية الرندي نموذجاً)، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، مجلة التراث العربي، العددان 132-133، 2014م.
- نكاع، علي: جماليات التصريح في القصائد الأندلسية لأحمد شوقي: دراسة أسلوبية، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع: الجزائر، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، ديسمبر 2017، العدد 12.

الأطروحات الجامعية

- ابن سلامة، الربيعي: أدب المحنة الإسلامية في الأندلس، (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة الجزائر: الجزائر.
- أبو صالح، وائل: تطور الدرس النحوي بالأندلس في القرنين الخامس والسادس، (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة الإسكندرية: مصر، 1401هـ/ 1981م.
- الزواهره، ظاهرة محمد هزاع: التناص في الشعر العربي المعاصر: التناص الديني نموذجاً، (رسالة ماجستير)، الجامعة الأردنية: الأردن، 2011.
- الشموط، مهدي عواد: الرثاء في الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين، (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الأردنية: الأردن، 2010م.

- العبد اللات، فاطمة مفلح مرشد: *شعر الرثاء في الأندلس في ظل بني الأحمر*، (رسالة ماجستير)، الجامعة الأردنية: الأردن، 2002م.
- قاسم، فدوى عبد الرحيم: *الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف*، (رسالة ماجستير غير منشورة) ، جامعة النجاح الوطنية: نابلس، 1431هـ - 2010م.
- الكفاوين، شاهر عوض: *الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس*، (رسالة دكتوراه) ، جامعة أم القرى: مكة المكرمة، 1404هـ - 1984م.
- المبجوح، حاتم عبد الحميد محمد: *التناص في ديوان لأجل غزة*، (رسالة ماجستير)، الجامعة الإسلامية، غزة، 1431هـ / 2010م.

An-Najah National University

Faculty of Graduate Studies

**The Religious Trend in the Poetry of Lamentation
of Andalusian the Cities**

By

Kawther Mustafa Ahmed Asseda

Supervisor

Prof. Wael Abu Saleh

**This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for
the Degree of Master of Arabic Language and Literature , Faculty of
Graduate Studies , An-Najah National University , Nablus , Palestine .**

2018

**The Religious Trend in the Poetry of Lamentation
of Andalusian the Cities**

By

Kawther Mustafa Ahmed Asseda

Supervisor

Prof. Wael Abu Saleh

Abstract

This shows the cause of the events of Arab literature, especially in the poetry of Andalusia, which accompanied the civilization of Andalusia since its opening until departure and exit, that poetry accompanied the opening , describing the civilization, and enrich the beauty and qualities of cities and the splendor of its people, and when the Nakba happened in that country, the death and killing replaced the happy and good life, the poets and poetry stand with their countries and cities, made their poetry a mean to describe the tragedies of Al- Andalus and their suffer from the sacrifices and atrocities of the Spanish, and their poetry was an important mean to call for Jihad and to support the country that lost from their hands and goes to the infidels and Fronge to their destination of death and killing. Their poems depended totally on the religion as its base as it had strong authority and had an effect on the Andalusian cities which had an effect on their souls. Therefore, the poems which lamented the Andalusian cities included several religious contents; the religious trend was clear with accordance to the subject and the position. This research aimed to follow the religious trends and sources from the holy Quran and Al- Hadith and others. As well as explaining the subjects of the Lamentation of Andalusian the Cities in

which the religious trends were clear. Moreover, it studied the art and style in these poems. Also it aimed to know the impact of the religious trends on the structure of these technical poems and their methods. And the nature of this research required to follow the survey approach, which investigates the poetry of the lamentations of Andalusian cities, and follow them in their sources such as books of historians, writers and poetic dictionaries, and the analytical approach that analyzes these poems to find out the tributaries of that religious tendency, in addition to the analysis of those poems analytically, technically and linguistically and methodically, and the research has reached a number of results, the most prominent of which are: the numerous religious tributaries from which the poets borrowed from Andalusian cities and the Holy Quran was the first and most important and most present in those poems, Religious beliefs and worship, and there were many topics that included the religious trend and appeared and this tendency was clear, such as the call for jihad, and the victory of the nation and its leaders, and to explain the causes of the fall and the disasters that happened in that country, as the poets used the techniques and the methods which are special to the content of their poems, their poems were corresponding in their language and methods with the reality you are talking about; there so much questioning and appeal, and the start of their poems were characterized by the legislation that makes an impact of the soul is what these poets desire.